

29

العدد

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالتراث، الثقافة، اللغات

مجلة

والدراسات

2017

منشورات
مركز النخيل للتوثيق
جمعية النخيل للثقافة
والفن والتربية بكلميم

مجلة وادي درعة

مجلة دورية محكمة تعنى بالتراث والثقافة واللغات، والفنون

الخطاب الثقافي وأساقه الدلالية

العدد (29)، 2017،
بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، المغرب

مجلة وادي درعة

بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، المغرب

- مدير النشر والتحرير: مولاي علي أطوييف

- العدد: 2017/29

- رقم ملف الصحافة: 04/125

- رقم الإيداع القانوني: 05/0140 **Dépôt Légal**

- ردمد: ISSN: 9035-1114

الناشر: مركز النخيل للتوثيق، جمعية النخيل للثقافة والفن والتربية كلميم
المغرب.

- العنوان: رقم 23 زنقة 1 بلوك A حي الفلاحة كلميم

- البريد الإلكتروني: daraa.revue70@gmail.com

- قم الهاتف: +212 662-020883

- مطبعة: شمس برنت CHAM'S PRINT s.a.r.l

- العنوان: 1869، قطاع واو حي الرحمة - سلا، المغرب

- **Adresse** : 1869, Lot. Secteur E 335 Hay Rahma -
Salé, Maroc

- الهاتف: +2125 37 87 13 41

- البريد الإلكتروني: chamsprint@gmail.com

مجلة وادي درعة

مجلة دورية محكمة تعنى بالتراث والثقافة واللغات، والفنون
العدد (29)، 2017

مدير النشر والتحرير:

مولاي علي أطويف

هيئة التحرير:

التخصص	الاسم
علم الاجتماع	الصديق الصادقي العماري
علوم التربية	خديجة أطويف
الدراسات الإسلامية	عمر أبولاه

اللجنة العلمية:

التخصص	الاسم
علم الاجتماع	مولاي عبد الكريم القنبيعي
التاريخ	محمد الصافي
علم الاجتماع	الصديق الصادقي العماري
الأدب العربي	عبد الحكيم بوغدا
علوم التربية	خديجة أطويف
التاريخ	الحسين حديدي

إصدار مركز النخيل للتوثيق

جمعية النخيل للثقافة والفن والتربية كلميم، المغرب

العنوان: مركز النخيل للتوثيق رقم 23 شارع واد سوس حي الموحدين 1

كلميم-المملكة المغربية

الهاتف: 06.17.01.28.09/06.62.02.08.83

البريد الإلكتروني: daraarevue@gmail.com

تقديم

احتلت الظاهرة الثقافية في الآونة الأخيرة مكانة متميزة في الأبحاث والدراسات على اختلاف أنواعها وتوجهاتها وتخصصاتها، خاصة مع الدراسات الاجتماعية، لأن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي وثقافي في الآن نفسه، وبهذا يتميز بالتفاعل عبر علاقات اجتماعية متعددة مع الآخر المشابه أو المختلف، مما يؤدي إلى ثراء الخبرة والتجربة التي تساعد على التجديد والتحول في طريقة التفكير ونمط العيش وأسلوب الحياة، وخلال هذا التفاعل يتم إكساب العديد من النماذج والأشكال الثقافية بين الطرفين، الأمر الذي يدفعنا للقول بعدم وجود ثقافة خالصة، وإنما هناك تداخل وتقاطع وتفاعل بين الثقافات.

والحديث عن جمالية البنيات الثقافية والفنية في التراث المغربي خاصة، على اختلاف أشكالها وتلويناتها، يضعنا بداية أمام حقيقة وفعالية هذا التراث، وكيفية التعامل معه من حيث المنهج والأسلوب لإخضاعه للقراءة والتحليل والتمحيص. ومن دون شك أن المغرب يتمتع بتعدد ثقافي وفني عريق، يختلف من منطقة إلى أخرى بتعبيراته وأشكاله وأنواعه حسب اللغة واللهجة ونمط العيش، ومدى بعده أو قربه من المدينة، وحتى داخل المدن نفسها وغيرها من المحددات الجغرافية والاقتصادية والثقافية.

فالتراث الثقافي كنص من النصوص بما يتضمنه من تعبيرات مختلفة سواء تعلق الأمر بالعادات والتقاليد والمسرح والأنظمة السياسية...، يمتلك قوة التأثير وسلطة الإلزام، لأنه ينساب ويتوزع وفق أنساق ثقافية لها أبعادها وخلفياتها وامتداداتها التاريخية، فهو يختزل كل معالم التعبير الفني والجمالي إما عن طريق الكلمة أو الرمز، من خلال خطاب واضح المعالم مؤسس على قواعد وأصول متعارف عليها بين أفراد الجماعة الاجتماعية، وهي أسس جامعة لا يجب الخروج عليها. فاللحمة وكل أشكال التضامن والحفاظية والمحافظنة نابعة من عمق هذا التراث، ومن مدى قدرته على بناء حصن مانع ضد الانقسام والتفرقة.

وفي هذا الإطار، سواء تعلق الأمر بالأشكال التعبيرية الفنية أو البنيات الاجتماعية الحاضرة لهذه الأشكال، فإن التراث الشعبي من جنوب المغرب إلى شماله يتقاطع في ما هو مشترك بين المغاربة جميعا من حيث القيم والأخلاق الجمعية الناظمة لهذا الشكل أو ذلك، غير أن الإشكال المحوري يتمثل في طريقة استنطاق الموروث الثقافي، وبالتالي تفتح مجموعة من السبل والاختيارات

خاصة أمام الباحثين. منهم من سعى لتأصيل التراث وإظهاره بشكل وفي للأصالة بمعزل عن الثقافات الأخرى المختلفة، ومنهم من حاول أن يجعل منها جسر تواصل مع الآخر في إطار الكونية التي تختزل فضاء بينيا تتقاطع فيه جميع الأشكال الثقافية أجل ضمان تفاعل وتدافع إيجابي بين الشعوب والحضارات.

لذلك جاء العدد 29 من مجلة وادي درعة المحكمة لإلقاء الضوء على مجموعة من الموضوعات الثقافية من أجل التعريف بها وإظهار ما تتوفر عليه من أشكال تعبيرية، كذلك لإثارة العديد من الإشكالات الأدبية والفنية والاجتماعية والسياسة والاقتصادية وغيرها، التي من شأنها أن تساعد القارئ على فهم وإدراك الرموز والدلالات التي يخترنها الموروث الثقافي، والقدرة على تحليل الخطاب الذي يسعى إلى تبليغه.

الصديق الصادقي العماري

علم الاجتماع

الإشعاع الاقتصادي والثقافي بمنطقة واد نون وامتداده الإفريقي

الحسين حديدي

مقدمة:

تمثل منطقة واد نون تاريخيا صلة وصل بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء، نظرا للدور الطلائعي الذي امتازت به هذه المنطقة في تنظيم القوافل التجارية ومد خيوطها شمالا وجنوبا عبر عدة مراكز ومحطات ساهمت في انسياب التجارة واستمراريتها منذ العصور الوسطى، وأكثر خلال العصر الحديث والمعاصر مع بعض الأسر المحلية خاصة أسرة آل بيروك منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

كما اشتهرت منطقة وادنون بقدم الاستقرار البشري الذي شهدته مداشرها، وقد عرف محيطها عبر التاريخ ازدهار مدن عريقة، كآسا ونول لمطة باسرير وتكوست وغيرها من المداشر، التي مثلت اشعاعا اقتصاديا وثقافيا باهرا جعل المنطقة تنفتح بشكل مبكر على المناطق المجاورة، وتشهد جملة من المشاريع المساعدة على الرقي والازدهار فلاحية كانت، أو صناعية، أو تراثية، وثقافية، أو تجارية، وسياحية.

هذا التنوع في الموارد والمؤهلات التي حظيت بها منطقة وادنون عبر التاريخ، أهلها لأن تكون فضاء للتعايش البشري واستقرار مختلف المكونات القبلية عربية كانت أو أمازيغية، فضلا عن بعض العناصر اليهودية والأوربية، مما بوأها مكانة اجتماعية فريدة من نوعها منحتها الريادة في إدارة الشؤون الاقتصادية والسياسية بالجنوب المغربي، ومكنتها من توطيد أواصر الصلات الروحية والاقتصادية مع بلدان غرب إفريقيا من جهة، ومراكز التجارة الأطلسية والمتوسطية بشمال المغرب وغربه من جهة ثانية. فما هو الإطار التاريخي والبشري والطبيعي لمنطقة واد نون؟ ثم ما هي الأوضاع الاقتصادية والثقافية التي ميزت منطقة واد نون خلال القرن 19م؟ وكيف هو امتدادها الإفريقي؟

1. الإطار التاريخي والجغرافي والبشري لمنطقة واد نون

1- الجذور التاريخية لمنطقة وادنون:

أ. أصل تسمية واد نون

تعتبر منطقة واد نون من أقدم مناطق الاستقرار بالجنوب المغربي، ويرجع الباحثون أصل ساكنتها إلى لمطة وجزولة، وقد اتخذت هذه المنطقة عدة أسماء لقرائن عدة تبعاً لما ورد في الكتابات العربية والأجنبية، التي تحدثت عن أصل كلمة واد نون أو واد نول وحدودها الجغرافية، وهي المنطقة التي تحدث عنها الجغرافيين العرب في كتاباتهم، ومنهم الحميري في كتابه الروض المعطار وكذا الجغرافي البكري في كتابه المسالك والممالك، حيث حدد مجال نول "عند بداية الصحراء فاصلاً بينه وبين سوس"، والشيء نفسه ذهب إليه الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"¹.

وبجانب كتابات الجغرافيين العرب، تحدث المؤرخون عن تسمية وادي نون، ومنهم ابن خلدون الذي أورد اسم واد نون إبان حديثه عن واد درعة بقوله: "وادي درعة تضيع مياهه في الصحراء بين سجلماسة وسوس ليصب في المحيط بين نون وودان"². واعتبر عبد العزيز بن عبد الله أن واد نون هو "قلب تكنة الناibus، أهله يعيشون في قصور، ولهم نجعة وريادة قليلة منهم: أزوافيط، آيت لحسن، آيت موسى أو علي"³.

أما بالنسبة للكتابات الأوربية التي تناولت هذا المفهوم وربطته بالمنطقة الحضرية القريبة من الساحل الأطلسي، فقد حدد روبرت مونطاني موقع وادي نون بقوله في الحقيقة: هذا الرأس المسمى بنون Cap Noun يوجد بين إفني وواد نون. أما بالنسبة للباحثة دي بيكودو (Du Puigaudeau) فتعتبره بداية "تراب البيضان. في حين ترى الباحثة جاك مونيي Jaques Meunié أن وادي نون "يمتد من الحدود الجنوبية الغربية للأطلس الصغير حتى شمال كتلة بانى"⁴. في حين ترى بعض الروايات الشفوية الأخرى أن أصول تسمية المنطقة

¹ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19 مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، 2016م، ص 64_65.

² عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المجلد الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ص. 21.

³ عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، ملحق 1، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1976م، ص 124.

⁴ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، ص 22.

يرجع أساسا إلى نوع من الحوت يسمى "نون"، كان متواجدا بكثرة في بحيرة قرب واد أساكا¹.

وعليه وبالرغم مما قيل عن واد نون وعن أسباب تسميته في الكتابات العربية والغربية، فهو مجال شاسع يمتد على مساحة شاسعة تشمل تراب تكنة بلفيها الشرقي والغربي، كما يتحدد المجال في كونه "يقع بين الواجهة البحرية غربا، والكتلة الجبلية بالأطلس الصغير الغربي شمالا والصحراء جنوبا ليعانق كل تراب قبائل تكنة"². على اعتبار أن منطقة واد نون عرفت عدة تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية شملت مجال وادنون الواسع، أكثر من المجال الطبيعي المرتبط بحوض وادنون الذي يوجد غرب واد صياد ويصب في واد أساكا في المحيط الأطلسي.

ب. جغرافية واد نون والتحويلات التي عرفتها المنطقة عبر التاريخ

اشتهرت منطقة واد نون بموقعها الاستراتيجي في كونها بوابة الصحراء نحو الجنوب، والمنطقة الفاصلة التي تربط المناطق الجبلية بالأطلس الصغير شمالا بالفيافي الصحراوية ذات الكتبان الرملية الكثيفة جنوبا، كما أن منطقة واد نون تعد نطاقا مناخيا وحاجزا طبيعيا يفصل بين مجالين طبيعيين ومناخين متباينين، وهما المجال الجبلي بجمال الأطلس الصغير جنوب منطقة سوس المعروف بأراضيه الخصبة، ومناخه المعتدل وظروفه الطبيعية الملائمة، وحجم التساقطات المطرية التي تعرفها المنطقة الشمالية لواد نون من جهة، وبين منطقة صحراوية تمتد على مساحات شاسعة جنوب واد نون في اتجاه العروض الصحراوية والمدارية شمال بلدان إفريقيا جنوب الصحراء.

وما تتميز به هذه المنطقة من قساوة الظروف الطبيعية والمناخية، وكذا ندرة الأمطار وشح في الموارد المائية، وضعف الغطاء النباتي الذي يتأثر بعوامل الجفاف والقحولة، وزحف الرمال وامتداد التصحر على غالبية الأراضي، مما يؤثر على ضعف النشاط الفلاحي والاستقرار السكاني، فضلا عن ارتفاع درجات الحرارة صيفا واعتدالها في فصل الشتاء، وهي ظروف تساعد على الترحال الدائم بحثا عن الكلاً والعشب للماشية، ونقاط الماء قرب الواحات والأودية الموسمية.

¹ محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، ج1، الدار البيضاء، 1975، ص 45.
² عمر أفا، الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات: التواصل والافاق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكادال، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 96، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص 31 - 32.

فمنطقة واد نون تتوسط مجالين مختلفين مناخيا واقتصاديا، مناخ شمالي يساعد على الاستقرار ويوفر امكانيات التنمية الاقتصادية للمستقرين فلاحين كانوا أو حرفيين أو تجار، ومناخ جنوبي يتسم بالقساوة وشح المعطيات الطبيعية، مما يساهم في عمليات النزوح والترحال الدائم، بحثا عن مصادر العيش. وبذلك تتمتع منطقة واد نون بخصائص مناخية وظروف طبيعية تؤهلها لأن تحتضن أعداد من سكان القبائل ممن زاوجوا بين الاستقرار والترحال. إلى جانب كون أراضي واد نون وتضاريسه الطبيعية تتسم بالتنوع، حيث يغلب عليها الانبساط مع وجود منخفضات وجبال تمثل مجالات رعوية صالحة لتربية الماشية، ونزوع المستقرين لمزاولة أنشطة فلاحية وحرفية بالسهول، مما يفسر نشاط الحياة الاقتصادية وإشعاع القطاع التجاري بتعدد المراكز والأسواق التجارية بالقرب من الواحات ومسالك التجارة الصحراوية، فضلا عن تنظيم المواسم الدينية والتجارية التي تعرف إقبالا سنويا للتجار، وسكان المنطقة والمناطق المجاورة لواد نون للتسوق واقتناء حاجياتهم من البضائع والمواد الفلاحية، والصناعية المحلية منها أو المجلوبة من الشمال أو الجنوب من قبل تجار القوافل الصحراوية.

وكذا تزويد القوافل بالأشخاص العارفين بمسالك الصحراء. وهي عوامل زادت من أهمية واد نون تجاريا واقتصاديا، واجتماعيا عند سكان المناطق المجاورة الذين فضلوا التسوق في مواسمها التجارية، والاحتكاك بتجارها وسكانها، فكانت واد نون بهذا المعنى قبلة لا محيد عنها للراغبين في اكتشاف الصحراء من الأوربيين وتجار الشمال من جهة، والراغبين في التزود من مختلف المنتجات الفلاحية والصناعية من سكان الفيافي الصحراوية وسكان بلدان غرب إفريقيا.

وتكمن أهمية منطقة واد نون في اشتداد التنافس على سواحل المنطقة من لدن الدول الأوروبية، لاسيما الأطماع الفرنسية والانجليزية والإسبانية خلال القرن 19م، حيث حاولت الدول الثلاث الظفر بمراسي لها على سواحل واد نون، ودخولهم في علاقات مع القائمين على الشأن التجاري بالمنطقة خاصة أسرة بيروك، قبل أن يتدخل المخزن المغربي للحيلولة دون بناء هذه المراسي.

2. الإشعاع الاقتصادي بمنطقة واد نون خلال الفترة الحديثة والمعاصرة أ. المكانة الاقتصادية بواد نون

استفادت منطقة واد نون من ظروفها الطبيعية وموقعها الاستراتيجي فيما شهدته من مكانة اقتصادية وإشعاع تجاري عم منطقة بلاد تكتة بشكل خاص ومنطقة الصحراء بشكل عام، فمنذ القدم عرفت واد نون بالصناعة التعدينية في العهد المرابطي، حيث أشار ابن حوقل إلى ذلك في منطقة بلاد لمطة من واد نون، ومنه سك العملة المرابطية¹. كما سادت أنشطة فلاحية بالمنطقة استفادت من وجود أراضي خصبة يوفرها حوض وادنون والمنخفضات المجاورة له التي حظيت بموارد مائية لا بأس بها عن طريق الأمطار السنوية في فصلي الخريف والشتاء، فضلا عن مياه الأنهار والأودية الموسمية التي يرتفع منسوبها إبان الفيضانات التي تشهدها منطقة واد نون، حيث تترتوي الأراضي الصالحة للزراعة، وتتبع مياه العيون مزودة هذه الأراضي بمصادر المياه إبان فترات سقي المحاصيل الزراعية.

فالشبكة المائية بواد نون تسمح بإنتاج فلاحي طيلة السنة، منه ما يرتبط بالتساقطات المطرية في الأراضي البورية مثل الحبوب كالقمح، والشعير والذرة في سهل توفليت أيت حماد، وضاف وادي درعة السفلى بالقرب من بلدة آسا وعوينة تركز، وتايسا وغيرها من المناطق البورية التي تساهم في انعاش النشاط الفلاحي المعتمد على إنتاج الحبوب أساسا. بينما توفر أراضي الواحات والمناطق المسقية بواحة آسا وواحة تاركمايت وأسرير، وتيغمرت ومنطقة أباينو وضاف واد صياد وفم أساكا وغيرها من المناطق ذات الأراضي الفلاحية الخصبة، حيث يتم إنتاج عدة منتوجات فلاحية كالحبوب والخضر والفواكه والزراعات الفلاحية التي تعتمد على مياه الساقية أو الخطارات، أو العيون التي تزود هذه المنتوجات السقوية بالماء الكافي طيلة السنة.

وهو ما يساهم في إنتاج ثروة فلاحية مهمة ومتنوعة تشمل الزراعات البورية والسقوية التي تحقق الاكتفاء الذاتي من جهة، وتصدر فائض الإنتاج من جهة ثانية إلى الأسواق التجارية المتواجدة بمناطق واد نون، التي يقبل عليها الرحل للتسوق وشراء ما يخصهم من منتوجات أغلبها من الحبوب، التي يحتاج إليها الرحل في إعداد الطعام وحمل منها الأحمال الثقيلة، لكونهم لا يزورون هذه الأسواق إلا في فترات محدودة خلال السنة، ولكون هذه المنتوجات تصمد لمدة

1 عمر أفاء، الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات: التواصل والأفاق، ص 72.

أكبر دون غيرها من المزروعات الأخرى التي تعد موسمية ويتطلب الأمر تناولها في وقت حصادها ونضجها. فضلا عن وجود أنواعا متعددة من أصناف المواشي مثل الإبل والغنم والماعز والأبقار. فقبيلة أيتوسى مثلا كانوا يجوبون كل المنطقة الممتدة من الأخصاص شمالا إلى ما وراء الساقية الحمراء جنوبا ومن الكعدة غربا إلى الإكيدي شرقا، ويمتلكون حوالي 8000 إلى 10000 رأس من الإبل، ثم ما بين 20000 إلى حوالي 25000 رأس من الغنم حسب رواية دوفورست¹.

كما اشتهرت منطقة واد نون بإشعاع النشاط التجاري منذ العصور الوسطى وبداية الحديثة، حيث كانت تكاوست عاصمة تجارية لواد نون بعد خراب نول لمطة، وقد زارها الحسن الوزان عام 1513 ومكث بها 13 يوما فقال عنها ما نصه: " مدينة كبيرة من أهم مدن سوس على الإطلاق بها ثمانية آلاف كانون، وسورها من التراب المدكوك...، وفي وسط المدينة دكاكين كثيرة للتجار والصناع...، كثيرة الإنتاج والمواشي وافرة الأعدد، يباع الصوف فيها بأحسن الأثمان ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تمبكتو وولاتة من بلاد السودان"².

وبذلك امتدت خيوط التجارة الوادنونية من الشمال نحو الجنوب بين بلاد المغرب شمالا وبلدان غرب إفريقيا جنوبا، فكانت منطقة واد نون بمثابة صلة وصل بين الشمال والجنوب، من خلال تعدد مراكز التجارة بها وكذا المحطات القافلية التي يستريح فيها التجار، فضلا عن نشاط الأسواق والمواسم التجارية بالمنطقة، ولعل من أبرز هذه المواسم التجارية الوادنونية نذكر: موسم أسا الديني والتجاري الذي يزامن ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم³، وموسم الولي سيدي الغازي بكلميم، وموسم سيدي سليمان بأباينو، ثم موسم مولاي أحمد الدرقاوي بتكانت قرب مدينة كلميم، وموسم لكصابي، وكذا موسم سيدي محمد بن عمرو بمنطقة أسرير⁴.

¹ عمر أفاء، الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات: التواصل والافاق، ص 111.

² محمد الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص ص 95-96.

³ الحسين حديدي، المواسم الدينية والتجارية بالصحراء: موسم أسا نموذجاً، مجلة واد درعة، عدد 24، 2016م، ص ص 3-21.

⁴ ناجيه عمر، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبيلة أيت لحسن نموذجاً، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999-2000م، ص 381.

ويعتبر هذا الأخير أهم هذه المواسم التجارية كما جاء في الرواية السالفة الذكر، حيث الرواج التجاري الكبير، ويعقد هذا الموسم مرتين في السنة، الأول يقام في بداية شهر يونيو، والموسم الثاني يعقد أواخر شهر يوليو، ويضم هذا الموسم عدة منتوجات مثل الأثواب والمواشي والمواد الفلاحية من خضر وفواكه وحبوب وزيت وغيرها من المنتوجات كالخنط والريش¹. وهي فرصة حقيقية للتجار القادمين من تمبكت في عرض بضائعهم للبيع وتحقيق الأرباح، لأهمية الرواج المرتبط بهذه الأسواق الموسمية الكبرى التي يصطلح عليها في الثقافة المحلية لقبائل تكنة بأمكار². وكانت هذه المواسم التجارية يفد إليها عدد من التجار من موريتانيا والسنغال واليهود، وكان التعامل التجاري يتم بالريال الحسني ونصفه وربعه، فضلا عن عملات أجنبية إسبانية وفرنسية³. مما بوأ منطقة واد نون خلال القرنين 19 مكانة متميزة، بظهور عدة أسر امتهنت التجارة، وعملت ما بوسعها من أجل انجاح القطاع التجاري وتطوير بنياته الاقتصادية. فماهي أهم الأسر الوادنونية التي اهتمت بالحياة الاقتصادية بالمنطقة؟

ب. دور بعض الأسر الوادنونية في تنشيط التجارة وظهور المواسم التجارية

نذكر من جملة الأسر التي امتهنت التجارة الصحراوية في بلاد تكنة نذكر: أسرة أهل بيروك ثم أهل بولشواك، ثم أهل لعريبي، وأهل لكريسان، وأهل عبد الواسع، وأهل البركة...⁴، إلا أن أسرة بيروك تعد من الأسر الوادنونية العريقة، التي ارتبط تاريخها بامتةان التجارة الصحراوية، وتنظيم حركة القوافل التجارية شمالا وجنوبا، لتزويد الأسواق المغربية والأوربية بسلع السودان الغربي، وتأسيسهم لعدة مراكز ومحطات تجارية على طول المحاور والطرق الصحراوية الرابطة بين المغرب وعمقه الإفريقي، والإشراف على هذه التجارة من خلال إنشاء عدة وكالات تجارية لهذا الغرض، انطلاقا من مركز الصويرة شمالا وباقى المراكز التجارية بسوس ووادي نون، وانتهاء بأسواق الذهب والعاج بتمبكت بإفريقيا جنوب الصحراء، مستفيدين من دور الوساطة التجارية

¹محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، 2016، ص 125.

²محمد الصافي، المرجع السابق، ص 381.

³محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، ص ص 126-135.

⁴محمد الصافي، نفسه، ص 169.

التي امتثلوها خلال القرن 19 ومطلع القرن 20م، في تحقيق عدة مكاسب اقتصادية وسياسية¹.

ويعتبر عبيد الله أوسالم أبرز أصول هذه الأسرة التي ظهر فيها فيما بعد شخصيات سياسية وازنة داخل اتحادية تكنة²، حيث تجمعت حوله قبائلها، وشاع صيت نجله من بعده بيروك بن عبيد الله، الذي حظي بمكانة هامة عند قبائل تكنة عامة، وعند قبيلة أيت موسى وعلي خاصة، كما مثل القطب السياسي لاتحادية تكنة حسب المراقبين الأوربيين، وعمل على مصالحة القبائل، وتزعم لفت أيت أجمل بمنطقة وادي نون³. واستطاعت أسرة أهل بيروك أن تتحكم في زمام التجارة الصحراوية بكلميم، حيث كان يقوم بخدمتها حوالي 1500 عبد، كما كان ينضوي تحت هيمنتها مجموعة رحلية يمتد مجالها حوالي 18 يوما جنوب وادي نول، وكان رؤساؤها يلقبون بالشيوخ، مما مكنها من لعب دور كبير أواخر القرن 19م وأوائل القرن 20م⁴.

وبجانب الأسر التجارية التكنية شهد المجتمع الوادوني ذالك التعايش بين أسر يهودية وسكان مدينة كلميم، من خلال امتهانهم للتجارة في وسط إسلامي مخالف لديانتهم وفي مجتمع له أعرافه وتقاليده الصحراوية الخاصة به، ومع ذلك استطاع اليهود أن يندمجوا في هذا المجتمع ويشكلوا وسطاء تجاريين لدى كبار تجار تكنة من أبناء أسرة أهل بيروك⁵. وهو ما سمح لهذا المكون من

¹الحسين حديدي، دور أسرة أهل بيروك في تنشيط التجارة الصحراوية بمنطقة وادي نون خلال التاريخ المعاصر، أسرة أهل بيروك، كتاب جماعي، تنسيق محمد الصافي، منشورات مركز النخيل للتوثيق، الطبعة الأولى، يناير 2016، ص 13.

²من أفراد هذه الأسرة الذين أشارت لهم المصادر التاريخية نذكر: بيروك بن عبيد الله وهو الذي ستحمل الأسرة اسمه وشهرته فيما بعد، ثم نجله محمد بن بيروك: اشتهرا بالتدين وكان أكبر إخوانه الأربعة عشر ولذلك فمجرد وفاة بيروك استدعاه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان وسلمه ظهير لتعيينه على منطقة الساقية الحمراء، كما امتاز بالكرم، وامتهان الفلاحة وبالتجارة مثل أبيه، ذهب إلى الطرفاية فسكن نحو سنة 1290 هجرية وبها فتح مرسى تجاري. وكذا القائد دحمان بن بيروك: أحد أولئك الأربعة عشر من أولاد بيروك عينه السلطان الحسن الأول منذ عام 1881 واليا بالساقية الحمراء، وقد سلمه كذلك عام 1885 مهمة حراسة السواحل من طرفاية إلى الداخلة وصد كل عدوان أجنبي على الصحراء، وكان للقائد دحمان اتصال كبير بعظماء الناس من الرؤساء والعلماء والصلحاء كالشيخ ماء العينين وسيدي المدني الناصري وكان للقائد دحمان ستة أولاد: علي فال، محمد، احمد سالم، البشير، محمد أحمد، محمد بن سرية.، أنظر بهذا الصدد محمد المختار السوسي، الجزء 19، ص ص 279_280. عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ص ص 100_143_153.

³مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، ص 178.

⁴محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، 2016م، ص ص 166_167.

⁵محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، م.س، 2016م، ص 130.

التعايش مع باقي مكونات المجتمع الوادنونى لسيادة الأمن والأمان الذى هو من شروط استثمار اليهود فى المنطقة.

3. الأوضاع الثقافية والروحية بمنطقة وادنون

عرفت منطقة وادنون حركية فكرية وثقافية مبكرة منذ العصور الوسطى بسبب ظهور مجموعة من الأولياء، الذين وفدوا على المنطقة وساهموا فى نشر العلم بها، وإشاعة الطرق الصوفية من خلال تربية المريدين وتلقينهم للأوراد، وهو ما انعكس بشكل إيجابى على منطقة وادنون واستقرار السكان بها، وإقبالهم على التعلم والاستفادة من تعدد مراكز العلم، والزوايا التى شاع صيتها بالمنطقة ردحا من الزمن، والتى لعبت دورا مهما فى ضبط التوازنات القبلية والفصل فى المنازعات، وتمكين الساكنة الوادنونية من شروط العيش والاستقرار، والاتجاه نحو إرساء العمران البشرى على ضفاف الأودية وقرب نقاط الماء والواحات، وهنا نضرب مثلا بزاويتي آسا وزاوية أسيرير، وكلاهما سطع نجمهما عاليا فى سماء منطقة وادنون، بفعل مكانة مشايخهما ومكانتهما العلمية، فضلا عن المؤهلات التى تمتعت بهما الزاويتين اللتين خرجتا أجيالا من العلماء والمريدين فى مختلف التخصصات العلمية، وساهمتا فى تحفيظ الناشئة للقرآن الكريم.

فكانت بذلك منارا علميا وروحيا يشع بنوره فى سماء وادنون، ويستقبل أبناء ساكنتها ويرسخ لديهم المعارف والعلوم، وهو ما أكدته عدة كتابات تاريخية خاصة كتاب المعسول لصاحبه محمد المختار السوسى إلى جانب كتاب ابن الزيات التادلى، التشوف إلى رجال التصوف، وكتاب طبقات الحضيكي لمحمد بن أحمد الحضيكي، وكذا كتابات الأجانب. الذين أرخوا لهذه النهضة الثقافية والروحية التى تميزت بها المنطقة منذ العصور الوسطى فى شكل زوايا ومدارس علمية وأسر امتهنت هذا الميدان مثل الوهداويين من آل إعزا ويهدى مؤسس زاوية آسا، ومنهم اللمطيين من أحفاد الشيخ محمد بن عمرو الأسيريرى، ثم الفلاليين من أبناء أبوبكر الفلالى، الذى قطن بالساقية الحمراء ودفن بالحكونية، حيث استقر أبناؤه فيما بعد فى كلميم، إلى جانب أسرة القاضي سيدي لعبيد ولد الحرمة وغيرهم.

II. امتداد الإشعاع التجاري والثقافي الوادوني نحو غرب إفريقيا خلال

القرن 19م

1. دور واد نون في تنشيط التجارة الصحراوية ومد خيوطها بغرب إفريقيا

استغلت ساكنة واد نون الموقع الاستراتيجي للمنطقة في تنشيط التجارة الصحراوية مما جعل منها همزة وصل بين المغرب وإفريقيا، فقد عرفت المنطقة عدد من المواسم والأسواق التجارية التي تعرض بها عدة سلع وبضائع من منتجات محلية ومواد ومصنوعات جلدية ونسجية، إلى جانب مادة السكر والشاي وبعض الأدوات المعدنية، والألبسة والعنبر وريش النعام والعبيد والبخور...¹، وأهم هذه الأسواق سوق كلميم²، مما سمح في غنى هذا السوق وتنوع سلعه الإفريقية والمغربية والعربية والأوربية، وكونه قلة للتجار القادمين من الشمال والجنوب والمناطق المجاورة لمركز كلميم حاضرة واد نون، إبان إشعاعه التجاري لاسيما خلال القرن التاسع عشر³. فضلا عن كونه مثل نقطة التقاء بين التجار القادمين من حواضر الشمال ورزازات، أكادير، مراكش، فاس...، وأولئك القادمين من تمبكت⁴.

في عهد بيروك أضحت منطقة واد نون ذات إشعاع تجاري هام، تستفيد من توزيع البضائع التجارية نحو الشمال (الصويرة) ونحو الجنوب (تمبكت)، وتنشيط حركة القوافل التجارية بين ضفتي الصحراء، كما عمل بيروك على تنظيم الأسواق وحماية الطرق والمسالك الصحراوية⁵، ويشير الباحث مصطفى ناعمي للدور السياسي والاقتصادي لشخص بيروك، الذي استفاد أيضا استفادة

¹ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، م.س، 2016م، ص 123.

² قامت حاضرة كلميم على أنقاض مدينة تكاوست حينما عمد دحمان ولد بيروك ولد ابيد الله أو سالم على جعل مدينة كلميم مركزا تجاريا بعدما نقل إليها السوق الأسبوعي، وساعد التجار اليهود على الذين كانوا مستقرين بتكاوست على بناء ملاح يحميه قصبته التي مثلت نواة العمران البشري بكلميم، حيث استفادت هذه الحاضرة من موقعها الاستراتيجي على طول القوافل العابرة للصحراء مما بوأها مكانة تجارية مهمة، حيث ورثت مكانة سجماسة التي سيطرت على التجارة الإفريقية لقرون عدة. أنظر محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، م.س، 2016م، صص 76_79.

³ الحسين حديدي، دور أسرة أهل بيروك في تنشيط التجارة الصحراوية، م.س، ص 29.

⁴ عبد الواحد أكميز، مساهمة مغاربة كلميم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتبكت، أعمال ندوة واحات وادي نون بوابة الصحراء المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابن زهر أكادير، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1999، ص 89.

⁵ أحمد بومزكو، وادي نون من خلال وثائق دار إيليج، أعمال ندوة واحات وادي نون بوابة الصحراء المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابن زهر أكادير، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1999، ص 64.

من تعاطيه للتجارة، ومن تبوأ أسرته مكانة عظيمة في هذا الميدان حيث يقول : "... حاول بيروك وكبار تمنارت في انسجام مع الحسين أو هاشم رئيس إمارة تازروالت وأكبر سلطة روحية لأكزولن تقوية محور سوس الأقصى التجاري، وقد أسهم بيروك من جهته بقسط وافر في هذا الاتجاه، إذ استعمل قبيلته ذاتها من أجل إقامة وكالات تجارية في كل أنحاء الصحراء وبعيدا جنوب نهر السنغال"¹.

فقد شملت المواد المتاجر فيها مع تمبكت ضمن الصادرات الوادونوية أساسا الأثواب أو القماش، ثم السكر والشاي، والأسلحة والأفرشة، والبارود والملح والقطن، بالمقابل استورد تجار واد نون عدة مواد تجارية ثمينة من تمبكت على رأسها الذهب، ثم مادة الصمغ العربي (العلك)، حيث تشير بعض الروايات إلى اقتناء أحد التجار المدعو مولود بن محمد بن عبد الرحمان قنطارا ونصف القنطار من العلك من الشيخ محمد بن بيروك². هذه المادة التي تزايد عليها الطلب من طرف الأوربيين خلال القرن 19م، فضلا عن تجارة ريش النعام والعاج...³، كما مثلت تجارة الرقيق دورا بارزا في التجارة الصحراوية، فقد كان العبيد بضاعة يتم مقايضتها بالملح والخيول وبعض البضائع الأوربية، وقد كانت هذه التجارة وراء ثراء عدد من الوسطاء والتجار وأعيان القبائل، وتعاطت عدة عائلات لهذه التجارة مثل عائلة أهل لعريبي⁴.

كما عملت أسرة بيروك على تنشيط التجارة الصحراوية بين السودان والصويرة، حيث أرسلت أسرة بيروك عدة قوافل محملة بالبضائع من بلاد السودان نحو الصويرة شمالا، وكانت لها وكالات تجارية في مدينة الصويرة، وسعى دحمان ولد بيروك جاهدا إلى امتلاك دار في الصويرة⁵، إلى جانب اهتمام أهل بيروك بعقد علاقات تجارية مع الأوربيين لاسيما مع الانجليز في عهد محمد بن بيروك، الذي عرف بمرورته مع الأوربيين وكان له الفضل في سك عملة حملت اسمه⁶. وعمل أبناء بيروك على محاولة فتح مرسى محلي

¹مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، ص 179.

² محمد الصافي، العلاقات التجارية بين وادي نون وتمبكتو خلال الفترة الحديثة والمعاصرة، ضمن كتاب الصحراء في العلاقات المغربية الإفريقية، تنسيق محمد بوزنكاض، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2015، ص 75.

³مصطفى ناعمي، المرجع السابق، ص 75.

⁴محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، 2016، ص 203.

⁵محمد الصافي، المرجع السابق، ص 204.

⁶مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، ص 130.

بالقرب من مصب أساكا الذي تحمست له الدول الأوروبية خاصة الإسبان والفرنسيين¹.

وعلى غرار المحاولات الإنجليزية بالقرب من مصب واد أساكا وفي سواحل الطرفاية، قام الفرنسيون والإسبان بعدة محاولات للتعرف على السواحل الجنوبية، وإقامة بها وكالات تجارية دون جدوى. في حين استحضر الإسبان إرثهم التاريخي بالمنطقة من خلال ميناء سانتاكروز ديماربيكينيا الذي تم إنشاؤه في النصف الثاني من القرن 15م، حيث سعوا إلى تجديد علاقتهم بهذا الميناء خلال القرن 19 بعد ظهور أسرة بيروك التجارية بواد نون². ومع ذلك لم تتمكن أي دولة من الدول الثلاث من إقامة وكالة لها في المنطقة، فقد كانت كلها تجتمع في نقطة ساحلية واحدة، وتعرض سلعها بالقرب من الساحل، وتحصل على البضائع المحلية من ممثلين لها يعيشون بين السكان، وكان اليهود صلة الوصل الأساسية بين ممثلي هذه الوكالات وسكان المنطقة³. فما هو موقف المخزن المغربي من هذه العلاقات التجارية والمحاولات الأوروبية للإتجار مع أسرة بيروك؟

عرفت منطقة واد نون عدة أوضاع سياسية تمثلت أساسا في تكالب القوى الغربية على السواحل المغربية ومحاولتها الجادة الظفر بموقع على هذه السواحل لأهميتها التجارية وقربها من سواحل غرب إفريقيا، ولذلك حاولت هذه الدول الإمبريالية لاسيما الإنجليز والفرنسيين والإسبان، إيجاد موطن قدم لها على هذه السواحل المغربية لاسيما القريبة من واد نون، نظرا لموقعه الاستراتيجي والظفر بعلاقات تجارية مع سكانه وإنشاء مراسي ساحلية بالقرب منه لتنشيط تجارتهم، إلا أن موقف المخزن المغربي من وجود مراسي أوروبية على السواحل المغربية بواد نون والطرفاية كان أمرا مرفوضا، للحيلولة دون القضاء على مركز الصويرة التجاري من جهة، وكذا توطيد المخزن لسلطته ونفوذه بالمناطق الجنوبية ومراقبة تحركات الأوربيين من جهة ثانية، وهو ما دفعه إلى تعيين ممثلين عنه وعيونا له على المنطقة من أبناء أسرة بيروك، وتمكينهم من الوسائل الضرورية والكفيلة بإجهاض أي محاولة للأوربيين في إنشاء مراس لهم بسواحل المنطقة. خاصة في عهد الحسن الأول، الذي عين

¹ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، ص 204.

² محمد الصافي، المرجع السابق، ص 164.

³ محمد الصافي، نفسه، ص 164.

أبناء أسرة بيروك قواد للمخزن بعدة ظواهر وتبادل معهم عدة رسائل في هذا الشأن¹.

وتتوجبا لهذه المكانة الاقتصادية التي كانت عليها أسرة بيروك، ودورها في إدارة مرسى محلي، عين السلطان الحبيب ولد بيروك قائدا للمخزن على المنطقة لحمايتها من تهديدات الأجنبي، واستمرت الاتصالات بين الطرفين عبر تبادل الرسائل، وتوجيه الأسرى الأوربيين الذين يقعون بيد القائد الحبيب بن بيروك إلى حواضر الصويرة وتارودانت². كما عين المخزن المغربي فيما بعد دحمان ولد بيروك قائدا للمخزن بالمنطقة، فبرهن هذا الأخير عن كفاءة عالية في تسيير شؤون المنطقة، وإرساله للأسرى الذين يقعون بيد قبائل تكنة نحو الصويرة، وقيامه بعدة حملات تأديبية ضد القبائل التي تتاجر مع الأوربيين، وهو ما أشارت إليه إحدى الرسائل السلطانية بما نصه: "خديمنا القائد دحمان بن بيروك التكني، وبعد فقد وصل كتابك بما بلغك من كون النصارى الذين أشرت إليهم وجهوا كتابا لأهل الخيام بالساحل يطالبون منهم فيه إتيانهم بالصوف والغنم، بقصد وسقها من هناك وأنك أخذت بالحزم ووجهت من قبلك من يمنعهم من ذلك"³.

كما أن القائد دحمان عمل على تخريب المنشآت المشيدة بمرسى طرفاية، واعترافا من المخزن بجهوده في حماية السواحل المحاذية لمنطقة وادي نون، عمل على تحويل دار الحبيب بن بيروك إلى مركز مخزني تقيم به الحامية العسكرية التابعة للمخزن المغربي⁴.

2. مساهمة علماء وادنون في نشر العلم بغرب إفريقيا

ساهمت القوافل التجارية بشكل كبير في تعزيز العلاقات الاقتصادية والثقافية بين منطقة وادنون وبلدان غرب إفريقيا، فأصبحت الأسواق الإفريقية لا تستقبل فقط البضائع والسلع ومختلف المنتوجات المغربية والأوربية، بل أيضا تعرف رواج بيع الكتب وتحتضن التجار والعلماء من منطقة وادنون ممن يستهوهم المكان بالاستقرار و نشر العلم، والجلوس للتدريس والإفتاء، فقد قيل قديما العلم وريث التجارة، أينما وجدت الأسواق ومراكز التجارة وجد بجوارها مجالس

¹ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، ص 205.

² أحمد بومزكو، وادي نون من خلال وثائق دار إيلينغ، ص 44.

³ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، ص 265.

⁴ أحمد بومزكو، المرجع السابق، ص 44.

العلم، حيث تبادل الأفكار بين العلماء الوافدين والمستقرين، وتطور المراسلات والإجازات العلمية والمناظرات.

وهذه الصورة تنطبق على أسواق التجارة بغرب إفريقيا، إذ نجد أن سوق تمبكت التجاري، سرعان ما أضى مركزا علميا يشع بنوره في سماء غرب إفريقيا كلها، لما يفد عليه من العلماء والطلبة، وتردد التجار بسلعهم وبضائعهم، فنتج عن هذه الحركية الاقتصادية والفكرية أن عجت تمبكت بالمساجد كالمسجد الجامع المعروف بجنغري بير ومسجد سنكري، الذي جدد بناءه القاضي العاقب وأكمل بناءه الملك أسكيا في أواسط القرن العاشر الهجري، وكان التعليم فيه على مستوى عال وتدرس فيه المواد بشكل تخصصي، ثم مسجد سيدي يحيى، هذه المساجد لعبت دورا مهما في تنشيط الحياة الفكرية بتمبكت¹.

لئن كانت هذه المزية بلغت تمبكت خلال القرن السادس عشر بفعل نشاط تجارة القوافل وانسيابها ذهابا وإيابا بين المغرب الأقصى وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، فإن هذا الإشعاع ظل مستمرا لقرون من الزمن حتى في أحلك الظروف السياسية التي صاحبت الإستعمار الأوربي للقارة الإفريقية، والدليل على استمرارية هذا الإشعاع تفضيل بعض علماء وادنون المكوث بهذه البلدة التي عاش فيها ردحا من الزمن إلى أن توفاه الأجل المحتوم بها عام 1955م. فمن هو هذا العالم الوادوني؟ ولماذا فضل تمبكت؟ وكيف ساهم في تمتين الصلات الثقافية بين وادنون وغرب إفريقيا؟

يعد أحمد بلعراف التكني نسبا الكلمي موطنا، أحد أبرز علماء منطقة وادنون الذين حققوا الصلات العلمية والثقافية بين وادنون والعمق الإفريقي، مستمدا تجربته هاته التي سنفصل فيها بحول الله من نشاط تجارة القوافل الصحراوية التي مدت جسور التواصل المادي والمعنوي بين سكان غرب إفريقيا ومنطقة وادنون خصوصا، وبين شعوب غرب إفريقيا والمملكة المغربية بشكل عام.

لقد اقتصرنا على هذا العالم نظرا لشح المعطيات في هذا الجانب الثقافي فيما يخص العلماء الوادونيين الذين حجوا لغرب إفريقيا لتعزيز الصلات الثقافية، وعزأونا في هذا الشح في المعلومات لغياب الوثائق وشح كبير في المصادر التاريخية التي اهتمت بهذا الموضوع، في حين يرجع الفضل في شهرة بلعراف

¹ عبد الرحمان ميفا، الحركة العلمية في مدينة تمبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، مجلة دار الحديث الحسنية، ع14، مكتبة ومطبعة الأمنية، الرباط، 1997، ص ص 350-351.

التكني إلى المؤلفات التي دونها عن حياته ومنها كتابه: "إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط"، الذي حققه الدكتور الهادي المبروك الدالي.

فهذا الكتاب يعد وثيقة تاريخية عن جهود علماء وادنون في التدريس ونشر العلم والاحتكاك بالعلماء بغرب إفريقيا، فقد ولد العالم أحمد بلعراف التكني عام 1864 بمسقط رأسه بمدينة كلميم، من أسرة علمية عريقة زاول أفرادها العلم والتجارة والقضاء، فكانت بذلك تتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة، كان لها الأثر الإيجابي على شخصية هذا العالم الذي بدأ مشواره الدراسي بالكتاتيب القرآنية في كلميم، ثم بعدها انتقل إلى المحاضر العلمية بشنقيط، فحصل زادا من العلم أبهر به أساتذته وزملاءه، ثم انتقل إلى مدينة تمبكت بغرب إفريقيا، وهناك سببرز شخصيته العلمية بشكل كبير¹.

فقد كان من بين علماء وادنون الذين اهتموا بالتجارة ونشر العلم، حيث منّ الله عليه بالمال والعلم، وكرس حياته وماله لإحياء التراث الإسلامي وحفظ الكتب ومساعدة العلماء على اقتنائها، وتدوين النوازل والمخطوطات، فألف خزانة من الكتب وجعلها رهن إشارة العلماء عام 1907م، وقد ضمت هذه الخزانة ما يناهز 2076 مخطوطا ورسائل ووثائق وكتب، وذلك سنة 1945م حسب الإحصاء الذي قام أحمد بلعراف التكني قبل وفاته. واليوم يقول الباحث الهادي المبروك الدالي الذي زار تمبكت تضم هذه الخزانة حوالي 680 مخطوطا، و6039 كتابا مطبوعا².

هذه الأرقام إن دلت على شيء فإنما تدل مكانة الرجل العلمية واهتمامه بالعلم وحرصه على جمع النادر من الكتب والمخطوطات والاشتغال بالتأليف، فكان بذلك أحد المساهمين الحقيقيين في نهضة العلم بغرب إفريقيا، حيث أضحت خزانته ملاذا للباحثين والدارسين من أبناء غرب إفريقيا، كما اشتهر هذا العالم بنبوغه العلمي حيث "صار حجة لا يجارى، برز كمفت حيث كانت تحال إليه

¹ أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق وتقديم الهادي المبروك الدالي، الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية، د.ط، د.ت، ص 06.

² أحمد بلعراف التكني، المرجع السابق، ص 10.

المسائل الشائكة من مختلف المناطق من مالي، وموريتانيا، والنيجر، والسينغال، وبنيجيريا¹.

وكان لهذا العالم عدة رسائل مع دول مغاربية وإفريقية يطلب منها تزويده بالكتب، ذلك " أنه كان شغوفاً باقتناء الكتب والمخطوطات، وكان يبذل في سبيل اقتنائها مجهودات كبيرة ويراسل في شأنها الدول الإفريقية، وكانت كتبه بصفة عامة تنسخ في ثلاث نسخ، إثنان منها كانت للبيع، والنسخة الثالثة يحتفظ بها لنفسه². فقد اشتهر بخاصية التأليف والتدوين في شتى المجالات، فضلاً عن عدة رسائل تبين علاقته بالتجار المغاربة، حيث وجدت في خزانته أزيد من مائة رسالة إلى تجار المغرب في شأن تجارة السكر والشاي وتجارة الكتب، خاصة رسائله إلى التاجر المغربي محمد بن المحجوب المراكشي بنيجيريا، وتجار مغاربة بالسينغال³.

هكذا كان العالم الوادوني أحمد بلعراف التكني عالماً ومفتياً وتاجراً ومدرسا ومؤلفاً، ألف عشرات الكتب، ويعد كتابه "إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط"، والذي حققه وقدمه الهادي المبروك الدالي، هذا الكتاب الذي يعنى بالتراجم والتاريخ لكونه يترجم لعدد من العلماء من الصحراء وشنقيط ودول غرب إفريقيا، ويرصد تاريخهم وانشغالاتهم العلمية وإسهامهم في إشعاع الحركة العلمية والدينية في الغرب الإسلامي، وتمتين عرى التواصل بين المغرب وغرب إفريقيا. فالكتاب يعد وثيقة تاريخية وقيمة علمية إضافية لغناه المعرفي وأهمية القضايا التي يعالجها، والتي تبرز الشيء الكثير عن العلاقات المغربية الإفريقية بصفة عامة والعلاقات الوادونية الإفريقية بشكل خاص.

❖ خاتمة:

مؤدى القول، شهدت منطقة واد نون خلال القرن التاسع عشر عدة أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وروحية، أبانت عن جانب مهم من تاريخ منطقة واد نون ومكانتها الاستراتيجية، وغنى بنياتها الاقتصادية التجارية والفلاحية والحرفية، وتنوع مكوناتها الاجتماعية والبشرية، ووزن أعلامها وقادتها وزعمائها السياسيين الذين دافعوا عن سواحل واد نون من التسرب

¹ أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، ص 06.

² أحمد بلعراف التكني، المرجع السابق، ص 09.

³ أحمد بلعراف التكني، نفسه، ص 16.

الأوربي، وتلقوا ظواهر توقيير واحترام من المخزن المغربي لجهودهم السياسية، فضلا عن إشعاع منطقة واد نون، على المستوى الثقافي والروحي، من خلال ظهور عدة زوايا عريقة بالمنطقة عمل روادها على نشر العلم والدين، وتلقين الأوراد الصوفية للأتباع والمريدين، مثل زاويتي آسا وأسريير، مما انعكس بشكل إيجابي على تطور العلم بالمنطقة وظهور عدة أسر علمية حملت مشعل الرقي الاقتصادي والثقافي وبت العلم بين سكان واد نون، وتجاوزه جنوبا نحو العمق الإفريقي، فنبت فيها أعلام وعلماء سجل التاريخ أسماءهم وحفظ لنا تراثهم الفكري، ولعل أسرة أحمد بلعراف التكني إحدى هذه الأسر الوادنونية التي بصمت بصمتها في مجال العلم والقضاء، امتد تأثيره إلى حواضر غرب إفريقيا.

❖ المراجع المعتمدة

- ✓ محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19 مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، 2016.
- ✓ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المجلد الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ب. ت
- ✓ عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، ملحق 1، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1976.
- ✓ محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، ج1، الدار البيضاء، 1975.
- ✓ عمر أفا، الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات: التواصل والآفاق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكادال، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 96، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2001.
- ✓ محمد الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983.
- ✓ الحسين حديدي، المواسم الدينية والتجارية بالصحراء: موسم آسا نموذجاً، مجلة واد درعة، عدد 24، 2016.
- ✓ الحسين حديدي، دور أسرة أهل بيروك في تنشيط التجارة الصحراوية بمنطقة وادي نون خلال التاريخ المعاصر، أسرة أهل بيروك، كتاب جماعي، تنسيق محمد الصافي، منشورات مركز النخيل للتوثيق، الطبعة الأولى، يناير 2016.
- ✓ ناجيه عمر، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبيلة أيت لحسن نموذجاً، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999-2000.
- ✓ عبد الواحد أكميز، مساهمة مغاربة كلميم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتنتبكت، أعمال ندوة واحات وادي نون بوابة الصحراء

المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر أكادير، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1999.

✓ أحمد بومزكو، وادي نون من خلال وثائق دار إيليج، أعمال ندوة واحات وادي نون بوابة الصحراء المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر أكادير، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1999، ص 64.

✓ محمد الصافي، العلاقات التجارية بين وادي نون وتمبكتو خلال الفترة الحديثة والمعاصرة، ضمن كتاب الصحراء في العلاقات المغربية الإفريقية، تنسيق محمد بوزنكاض، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2015.

✓ عبد الرحمان ميفا، الحركة العلمية في مدينة تمبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، مجلة دار الحديث الحسنية، 14ع، مكتبة ومطبعة الأمنية، الرباط، 1997.

✓ أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق وتقديم الهادي المبروك الدالي، الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية، د.ط، د.ت.

قبيلة أولاد بوعشرى في الكتابات الأجنبية خلال القرنين 19 - 20م

حسان الشاكر

تعد الكتابات التي تتحدث عن قبيلة أولاد بوعشرى خلال الفترة المدروسة سواء منها الأجنبية (الكولونيلية) أو المحلية في حكم النادر، وخاصة لما يتعلق الأمر بفترة الحماية الفرنسية على المنطقة وما قبلها (مرحلة الاكتشافات الأولى)، باستثناء بعض الإشارات البسيطة - التي لا تتجاوز في بعض الأحيان سطرين أو ثلاثة- وردت في بعض الكتابات المتعلقة بواد نون سواء في بداية اتصال الأوروبين بالقبيلة، أو خلال عهد الحماية الفرنسية على المنطقة أي ابتداء من سنة 1934 إلى حدود 1948م¹.

انطلقت خلال القرن التاسع عشر هجمة استكشافية شرسة من طرف الأوروبين على المنطقة تسعى إلى جمع أكثر قدر من المعلومات عن المنطقة لأجل استعمارها، واستمرت هذه الهجمة إلى مطلع القرن العشرين قبيل تطبيق الحماية على المنطقة، وقد واكب هذه الهجمة الأوروبية ظهور مجموعة من الكتابات ذات بصمة سلبية شوهدت تاريخ المنطقة بصفة عامة وتاريخ القبيلة بصفة خاصة.

وعليه فقد جمعنا كل النصوص المكتوبة بالفرنسية المتعلقة بقبيلة أولاد بوعشرى، وقمنا بنقلها إلى اللغة العربية وذلك لأهميتها في فهم بنيات هذه القبيلة على المستوى التاريخي والاقتصادي والاجتماعي والذهني، ولإعادة تصويب المعلومات الواردة فيها إن كانت تحتاج إلى ذلك، فأغلب المعطيات التي وقفنا عليها والواردة في هذه النصوص الفرنسية هي خاطئة، فأغلب الباحثين من أبناء المنطقة يقومون أثناء بحوثهم بنقل معلوماتهم من هذه النصوص دون التحقق من قيمتها العلمية، ولا أدل على ذلك أن كل ما كتب حول قبائل تكنة يعتبر ترجمة حرفية لما كتبه الكولوناليون، دون قيام أبناء المنطقة بدراسات في محاولة منهم لتصويب هذه المعلومات أو نقدها على الأقل.

هذه النصوص كتبها في البداية كتاب من أمثال الرحالة والتاجر والجاسوس اليهودي مردخاي أبو السرور وكانوا يهدفون من وراءها إلى معرفة المجال،

¹تعتبر سنة 1948م السنة التي صدر فيها آخر الكتب التي تتحدث عن واد نون وهو كتاب فانسان مونتايا (Notes sur Tekna).

ثم ضباط عسكريون كانت لهم خبرة بإدارة شؤون المستعمرات في الجنوب المغربي وموريتانيا من أمثال بول مارتني وفانسان مونتاي، والبعض الآخر من هؤلاء الضباط سُنحت لهم فرصة الاطلاع على أرشيفات إدارة الشؤون الأهلية والقيام بتحريات ميدانية معتمدين على الرواية الشفوية (الضباط المتأخرين)، ومن المحتمل أنهم وقفوا على وثائق محلية مثل دولارييل بحيث أقر هذا الأخير أنه اعتمد على الرواية الشفوية من خلال ما جمعه من القائد احمد اضرضور الإبراهيمي¹ لأجل كتابة تقريره عن قبائل المنطقة.

اخترنا الفترة الممتدة من 1875 إلى حدود 1948م وهي الفترة التي كتبت فيها جميع النصوص الأجنبية المتعلقة بقبيلة أولاد بوعشري، وذلك عبر مرحلتين: المرحلة الأولى كان هدفها هو جمع أكبر قدر من المعلومات لأجل إخضاع المنطقة عسكريا، وبعد الإخضاع العسكري بدأت مرحلة أخرى تمثلت في سن سياسة جديدة في المستعمرات تجلت في فرض مراقبة عسكرية على السكان ومجالهم الترابي، ليبدأ بعد ذلك مسلسل الاستغلال الاستعماري عن طريق استعمال سواعد أفراد القبيلة (السخرة) في بناء البنى التحتية المتمثلة في شق الطرقات وحفر الآبار، وبناء مقر مجموعة من الإدارات الخاصة بالمستعمر الفرنسي، واستغلال قدراتهم الاقتصادية عن طريق فرض ضرائب مجحفة عليهم.

وتعود أقدم الإشارات التي وصلتنا عن قبيلة أولاد بوعشري ومجالها الجغرافي الحالي (تيدالت² وإروالن³) إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عندما قام الرحالة اليهودي مردخاي أبي السرور برحلته الاستكشافية التي قادته انطلاقا من موغادور (الصويرة) إلى جبل تابيوضتغير مجموعة من المناطق

¹ هو احمد بن الحسين بن محمد بن اعلي بن احمد بن مسعود يلقب بأضرضور، من فرقة إد احمد أو مسعود الإبراهيمية، عين قائدا على إد إبراهيم - لنصاص وذلك بمجرد دخول الفرنسيين لواد نون سنة 1934.

²ورد رسمها في الوثائق المحلية بصيغة: تيدلت، تيدالت، تيدالت، وفي بعض الكتابات تايدالت، أما الاسم الحالي المتعارف عليه في الكتابات هو تيدالت، وباللغات الأجنبية كتبها الفرنسيون والانجليز ومن نقل عنهم على الصيغ الآتية: Taidalt، Taydelt، Taïdalt، Taidalt، Taidert، Tahiddelt، Tidalt، Taidale، Taidalte، Taydalt، حاليا تكتب على هذه الصيغة: Taidalt.

³تعتبر إروالن منطقة فيضية تبعد عن تيدالت من جهة الغرب بحوالي سبع كيلومترات، تصب فيها مجموعة من الأودية القادمة من المرتفعات القريبة مثل تايصة وباني، وهي منطقة مشتركة بين مجموعة من القبائل وخاصة منهم قبائل لنصاص الأربع، إضافة إلى القبيلتين الجارتين من جهة الشمال الغربي والغرب وهما آيت احمد وآيت مسعود اللتين يملكان مجموعة من لمعادر في هوامش في إروالن على التوالي في كل من إيفراضن والبياضات.

بالجنوب المغربي، و هو الجبل الذي ذكر مردخاي أنه وصل إليه في إطار بعثته التي انطلقت من الصويرة خلال بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهو جبل على شكل قلب، يقع بالقرب من اخنيك الدوبلال ويصعب الوصول إلى قمته التي يبلغ ارتفاعها حوالي 1200 متر نظرا لصعوبة تضاريسه، وجاء هذا الجبل في الوسط ما بين مجموعة من الدواوير بحيث يحده البرج من جهة الشمال، وتحده من الغرب تيكليت وأم لعويتكات من الجنوب، فيما تحده عوينة تركز من جهة الشرق، يقال أن سبب تسميته بهذه التسمية (جبل تابيوضت) يعود إلى امرأة شريفة تدعى لالة تابيوضت حيث دفنت في سفح هذا الجبل، ولكن ما لبثوا أن وجدوا قبرها رفع إلى أعلى قمة هذا الجبل كما تقول هذه الأسطورة.

وتجدر الإشارة أن هذه الرحلة تعد من المنجزات التي حققها القنصل الفرنسي بالصويرة أوغست بومي (BEAUMIER Auguste) الذي اهتم كثيرا بمردخاي منذ أن سمع بالطائفة اليهودية بتومبوكتو، ومنذ ذلك الحين شرعت فرنسا في تكوين الجمعيات الجغرافية تمهيدا لعمليات الاستكشاف الاستعماري، وفي سنة 1870 أصدرت الجمعية الجغرافية في باريس التقرير الذي حرره أبو السرور عن نشاطه التجاري في تومبوكتو، كما قام بومي بحملة إخبارية لفائدة أبو السرور عندما بادر إلى حث كل من مدير الجمعية الجغرافية الفرنسية والرابطة اليهودية العالمية على ضم أبي السرور إلى هيئتهما العلمية الساهرة على نشاط بعثتيهما في جنوب المغرب، ووقع تجنيد أبي السرور رسميا لخدمة المصالح الاستكشافية الاستعمارية الفرنسية ومن خلال الرسائل التي وجهها بومي إلى الرابطة اليهودية العالمية بباريس طالبا منها أهمية اعتماده كعميل بالمناطق النائية لجنوب المغرب، وفي هذا الإطار تم تمويل رحلة تكوينية قصيرة إلى باريس خلال ابريل 1874 من طرف الجمعية والجغرافية والرابطة اليهودية لتمكينه على الحصول على مجموعة من الأساسيات في مجال التجسس، وتعرف خلال هذه الرحلة على أبرز الوجوه الفرنسية التي تطمح لاستكشاف خبايا القارة الإفريقية وهو هنري دوفيري ليعلمه مجموعة من المبادئ الأساسية، ليقوم بعد عودته مباشرة إلى المغرب برحلته الاستكشافية بسوس لجمعه لعينات من الحشرات والنباتات، ومن خلال هذه الرحلة التي أوصلته إلى تيدالت ومناطق أخرى، وكان هدفها جمع المعلومات خاصة

الجغرافية والأركيولوجية عن المنطقة المجهولة عنهم آنذاك وخاصة بسوس ووادنون.

وسعيا منا إلى تعزيز شرط التوثيق وبيان الرواية والتحقيق في الوقائع، فإننا نتوسل برواية الرحالة اليهودي مردخاي شاهدا واقعيا ومرجعا واصفا لموقع القرية ومجالها الجغرافي، وكذا محيطها، بحيث قال: "إن تيدالت قرية تحيط بها الحدائق، وإلى الغرب منها مصدر مائي مهم وهو عين الضب"¹، هذا فيما يخص الزراعة.

أما بالنسبة للمجال العمراني فقد وجد عدة "أخرب" قديمة أو بناء أسس على خراب. يطلق اسم "لخرب" على المنازل القديمة في تيدالت والمنطقة القريبة منها، وهي المنازل القديمة والمهجورة والآيلة للسقوط، ويتوفر أگصر تيدالت على مجموعة من لخرب، وتتفق مجمل المعلومات التي وقفنا عليها سواء في الوثائق أو في الروايات الشفوية على أن القبيلة كانت تستقر في البداية في تغجيجت وانتقلت منها صوب المنطقة التي يوجد فيها البرج حاليا فأسست هذا الأخير ثم استقرت فيه لفترة الزمن، وما لبثت أن غادرت في نهاية المطاف إلى تيدالت مع نهاية القرن الثامن أو بداية التاسع عشر على الأرجح، والسبب الذي دفع أولاد بوعشري إلى مغادرة البرج هو قلة وشح المياه، كانت توجد بتيدالت بعض المباني القديمة، فمن خلال مجموعة من المباني التي اكتشفت مؤخرا بالصدفة في قلب البلدة قرب المسجد القديم بتيدالت يبدو واضح أن قصر تيدالت الحديث تم بناؤه على أنقاض بناء قديم، ولعل هذا يتفق مع الرواية الشفوية، كما يتفق أيضا مع المنظر الذي المشاهد على شكل مرتفع (نبكة) التي تتوسط مركز البلدة قرب المسجد القديم، فالرواية الشفوية المحلية ترى أن تيدالت كانت تسكن فيها فرقة من قبيلة دوبلال وغادرتها في اتجاه الشرق، وبعدها استقرت القبيلة في تيدالت. (رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015، للحسن ولد اميليد ولد اعلي الملقب بالحادگ). وكانوا يستعملون الحجر الصلب في البناء الذي كان يستعمله القدماء، كما وجد المقابر الكبيرة، مما يدل على أن الاستقرار البشري كان قديما بالمنطقة، ومما يعزز روايته حديثه عن مظهر آخر من مظاهر الاستقرار والثبات ويتجلى ذلك في وادي مايت، الذي يعد ممرا

¹Henri Duveyrier, De Mogador djebel Tabayoudt par le rabbin Mardochee abi serour. Extrait du bulletin de la société de géographie, Paris, 1875. Pp 13- 14.

طبيعيًا ومورداً خصباً من جهة الشمال، وهو الموقع الذي دخل منه مردخاي إلى البلدة، ويعد من أكبر الأودية بتيدالت وإروالن، ينبع هذا الوادي من أعالي تارگامایت ويمر من شمال تيدالت على بعد حوالي ست كيلومترات، ليصب مياهه في السدر والغابة وبوعلاگة، وذكر مردخاي أنه قطع هذا الوادي قبل وصوله إلى تيدالت خلال سبعينات القرن التاسع عشر من خلال رحلته التي انطلقت من الصويرة ووصلت إلى حدود جبل تايبوضت، إضافة إلى مروره من مجموعة من الدواوير والمناطق الأخرى السوسية والواديونية ومنها تيدالت التي استغرق فيها لفترة من الزمن (أيام أو شهور) لم تتجاوز المدة التي قضاها في تيدالت سنة واحدة.

واستناداً إلى ما ذكره دوفريي في وصفه لتيدالت نقلاً عن الرحالة مردخاي توجد مجموعة من التلال المتفرقة والمنعزلة إلى الغرب من تيدالت، ومصادر المياه -عين الضب- التي توجد على مقربة من تيدالت وإلى الغرب منها على الطريق المؤدية لإروالن والمتمركزة في أسفل تلة وحيدة (أكويرة علال)¹، أجزاءها مكونة من رمال، وتم إغلاق هذا المنبع قديماً من طرف "المسيحيين القدامى" كما تقول الأسطورة، وتساءل مردخاي هنا عن الشعب الذي تقصده الأسطورة هل هو الفنيقي أم البربري؟

توجد عين الضب في البريگة لكن مكانها غير محدد بدقة من طرف الساكنة في الوقت الراهن، لكن الوصف الذي أعطاه عنها مردخاي قد يبده نوعاً الشكوك عن المكان الذي توجد فيه العين، إذ وصفها وصفاً دقيقاً، إلا أن هذه العين اختفت ولم تعد تظهر للعيان، ويبدو أن مردخاي عندما كان يوجد آنذاك في تيدالت قبل 140 سنة ما تزال عين الضب واضحة للعيان وقد قال عنها آنذاك أن جزءاً منها تعرض للردم، وقال إن الردم تسبب فيه المسيحيين القدامى عندما كانوا هناك. حسبما تروي الأساطير أي أن أهل تيدالت آنذاك كانوا يعرفون قصتها، لكن السؤال الذي قد يتبادر إلى أذهاننا، ولماذا لم يتم الاحتفاظ بقصة هذه العين عند المتأخرين من أهل القبيلة إذا كان أجدادهم فعلاً قبل أكثر من قرن ونصف هم من أخبر مردخاي بهذه القصة؟ ولماذا سميت العين بعين الضب؟ قد لا نستطيع الآن أن نجيب عن هذين السؤالين الإشكاليين وغيرهما من التساؤلات التي تدخل في هذا الباب؛ وذلك نظراً للفقر المعطياتي، على العموم فكل ما قاله

¹سميت هذه التلة (أكويرة) على شخص يدعى علال ولد المعطي ولد بوبكر، كما أخبرنا أنه كان ينام بجوارها أثناء رعيه للغنم هناك خلال عقد سبعينات القرن الماضي.

مردخاي من خلال وصفه لهذه العين ومحيطها، حسب ما وصلنا من التلخيص الذي قام به هنري دو فريي لتقرير بعثة مردخاي المترجمة عن العبرية وهو كالآتي:

"إنها تقع إلى الغرب من تيدالت، وتعرف باسم عين الضب، وهي عين متمركزة تحت أسفل تلة وحيدة وأجزائها مكونة من رمال، وقد تم إغلاق فتحة هذا المنبع قديما من طرف المسيحيين القدامى كما تقول الأسطورة، وإلى الجنوب الغربي من عين الضب تتوسع مجموعة من التلال المتفرقة". وتبعا لبعض المعطيات التي حصلنا عليها من خلال التقصي في مجموعة من الروايات الشفوية، وكذلك من خلال الوقوف الميداني على المكان الذي تقع فيه هذه العين، يبدو أن الوصف الذي أعطاه مردخاي يتوافق مع ما جاءت به الرواية الشفوية؛ بحيث ترى هذه الأخيرة أن هذه العين تتمركز أسفل اكويرة معزولة وهذه لكويرة من المحتمل جدا إنها هي لكويرة التي تسمى حاليا بكويرة علال، وحتى التسمية التي أخذتها هذه لكويرة يبدو أنها حديثة العهد، وهذه الأخيرة كونها التلة الوحيدة المعزولة حسب ما قاله ماردوخاي، وهي تلة تخترقها الرمال من الجهة الشمالية الغربية، وتبعا لذلك فالاحتمال الصائب هو أنه إذا كانت التلة التي يقصدها مردخاي هي اكويرة علال المذكورة، فإن هذه العين (عين الضب) ستكون في الجهة الشمالية من هذه التلة (اكويرة علال).

تتوسع مجموعة من التلال الوحيدة، في اتجاه الجنوب الغربي من عين الضب وفي وسطها اكتشف مردخاي عدد هائل من الأودية القديمة، وعدد كبير من القبور، ويبدو أن هذا الرحالة وقف عندها حيث وصفها وصفا دقيقا ينم عن حس الرحالة الملم بدور البيئة والمجال التضاريسي في استقرار المجتمعات الصغيرة والكبيرة، كما يبين هنري دو فريي (Duveyrier Henri) نقلا عن مردخاي أن اسم القبيلة هو أولاد بوعشرى¹ وهي جزء من قبيلة آيت إبراهيم². وعموما فإن التأريخ للقبائل والمجتمعات الصغيرة التي تندر الوثائق التوثيقية والروايات المسندة إلى الثقافات من المصادر، يجعل البحث عن المعلومات لا يخلو من صعوبات وعثرات تقنية ترافق رحلة الجمع والتأريخ لأولاد بوعشرى، إلا أننا سنبنّي معرفتنا استنادا لما توافر لدينا من أسانيد خطية

¹وردت بصيغة أولاد لكن بوعشرى وردت هنا بصيغة غريبة "دهو اسرا" أو "دحو اسرا" وقد يعزى ذلك إلى كون مردخاي هذا يهوديا وكتب بالعبرية ومن تم اختلط الأمر على المترجم والملخص الفرنسي هنري دو فريي.

²Henri Duveyrier, op cit, P : 13.

وشفهية، منسوبة للرحالة ماردوخاي، وكذلك لوح 1248 هـ / 1832 م وهي عبارة عن وثيقة للوح عرفي مكتوب تكشف جوانب مهمة من تاريخ قبيلة بوعشرى، إذ ترد في ثنايا هذه الوثيقة بعض الإشارات والتوصيات لأحد الشيوخ المنصبين على تسيير وقيادة أمور ومصالح القبيلة، (ينظر وثيقة 1832 م)¹، والتي تشي عن إرهاصات التأسيس والبناء والهيكلية العملية لجماعة بوعشرى، وحسب مردخاي فإن تيدالت منطقة قديمة، استوطنها قوم غير أولاد بوعشرى، أما فيما يخص مسألة أن أولاد بوعشرى هي جزء من آيت إبراهيم فهذا الأمر لعله صادم وجود مردخاي آنذاك مع القبيلة قبل أن يعقد تحالف لنصاص بين هذه القبائل وجاءت تسمية لنصاص بناء على تقسيم هذه القبائل إلى ناطقة بالأمازيغية وأخرى بالحسانية.²

تحدث ألفريد دولوشاتولي (De le Chatelier) عن قبيلة أولاد بوعشرى في مقام تاريخي مغاربي في كتابه: قبائل الجنوب الغربي للمغرب بين سوس ودرعة، الصادر سنة 1891 م فسامهم بآيت بوعشرة بكسر الشين، (Ait Bou achera) وقال: "إنهم قبيلة من البربر مثل آيت أوسا، وإلى الغرب منهم، وهم رحل، ولديهم قصر واحد هو تيدالت، ولديهم خمسمائة بندقية، ولا يملكون خيول، ويملكون الجمال فقط، وينقسمون إلى قسمين هم: إد بونايلي والذين ينقسمون إلى: إد امبارك أو اعلي وأهل مولود أو مبارك، ثم آيت حدو أو لحسن الذين ينقسمون بدورهم إلى أهل تگونت، وأهل داوود هدي، وأهل أجريفية، ثم أهل جابر"³.

يتضح من خلال النص السالف الذكر تناقض المعلومات الواردة فيه كما هي العادة عند بعض المستشرقين والمخبرين الأوائل، حيث تغيب سمات التوثيق والتنقيح، لغياب مبدأ التاريخ في مقابل حضور مبدأ التحريف، فنجده يقوم ويصحح اسم القبيلة كما يدعي في كتابه: (l'islam dans l'Afrique Occidentale) - الصادر سنة 1899 م- ويسميهم بأولاد بوعشرة⁴.

¹وثيقة عرفية لقبيلة أولاد بوعشرى تعود إلى سنة 1248 هـ / 1832 م، كتبها محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان الرگراكي من حفدة آيت يعزى ويهدى حسبما أخبرنا به، ونملك نسخة مصورة منها.
²مصطفى ناعمي، "مادة آيت بو هو"، ضمن: معلمة المغرب. إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1995، ج6، ص 1893.

³De le Chatelier, A, Les tribus sud ouest marocain bassins côtiers entre sous et Draa. Publications de l'école des lettres d'Alger, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1891, Pp 86 -87

⁴De le Chatelier, A, l'islam dans l'Afrique Occidentale. Paris, 1899, P 329.

جاءت التسمية التي قدمها دولوشاتولي مناقضة لما ذكره كل من بول مارتي وفانسان مونتاي، وما يجمع بين هذين الأخيرين هو العمل العسكري في الجيش الفرنسي بموريتانيا، واحتكاكهما المباشر ببلاد شنقيط ومرانها على التواصل مع بني حسان بمختلف قبائلهم وأعرافهم الممتدة إلى كل ربوع الغرب الإفريقي في الشمال ووصولاً إلى المناطق المتاخمة لبلاد الامازيغ وبالضبط واد نون التي كانت محط رحال فانسان مونتاي.

قدّم دولوشاتولي مجموعة من المعطيات المتناقضة كان أولها تسمية القبيلة التي يشوبها بعض الغبش البادي للمتبرص قبل الأعشى، فتسمية القبيلة التي جاء بها دولوشاتولي تختلف عن بقية المستشرقين وتشبه للتسمية التي أوردها الرحالة الاسباني خواكيم غاتيل مما يعني أن دولوشاتولي لم يسبق له أن زار المنطقة وإنما أخذ التسمية عن غاتيل.

خواكيم غاتيل أو خواكين غاتيل ولد في 30 نونبر 1826م ببلدة أطفويا بإقليم طاراغونا الكتلاني باسبانيا، ينحدر من عائلة ميسورة درس القانون، وبعد ذلك درس اللغة والثقافة العربية الإسلامية بعد إطلاعه بعض الدراسات والكتابات التي تخص أدب الرحلة الاستعمارية لرحالة فرنسيين وانجليز عن تركيا ومصر وفلسطين والمغرب التي كانت تنشرها الصحافة الاسبانية الشيء الذي جعله يكون مولعا بالثقافة بالرحلة والاكتشافات، ولتطوير معارفه بالثقافة العربية الإسلامية انتقل إلى الدراسة بجامعة مدريد على يد المستشرق باسكوال، ولنفس الغرض زار كل من لندن وباريس وبعد تطوير مداركه أصبح أواسط القرن التاسع أصبح من أهم المستعربين الاسبان مما جعله يتصل بالدوائر الرسمية الأوروبية التي كانت تسعى آنذاك للتعرف على العالم الإسلامي، ولهذا اتصل غاتيل بالجمعية الجغرافية بباريس، وقد ربط علاقات مع مجموعة من الشخصيات العسكرية والديبلوماسية من أجل مساعدته على تحقيق مشاريعه الاستكشافية والظفر بمهمات سرية في كل من الجزائر وتونس والمغرب وسواحله الجنوبية في الفترة ما بين 1861-1865م وقد أظهر غاتيل نجاحا مهما وتمكن من خلالها من زيارة مناطق مغربية عديدة قبل أن تكلفه الحكومة الاسبانية باستطلاع السواحل الواقعة بين واد نون والطرفية سنتي 1864 - 1865م، حرصت اسبانيا على سرية النتائج المتوصل إليها بسبب التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية وبسبب الصراع الذي كانت تعرفه فرنسا آنذاك اضطر غاتيل للانتقال إلى فرنسا لنشر جزء من أعماله بعد حصوله على

الموافقة من الحكومة الإسبانية بخصوص بعض المواد التي سينشرها ضمن نشرة الجمعية الجغرافية بباريس حيث طبع المقال الأول سنة 1869م بعنوان: واد نون وتكنة بالساحل المغربي الغربي، والمقال الثاني تحت عنوان: وصف سوس سنة 1871.

وثانيها التقسيمات السلالية التي قدمها هي الأخرى غير موجودة في شجرة القبيلة، فقد وقفنا على مجموعة من الوثائق التي تعود إلى بداية القرن التاسع عشر ومنها اللوح العرفي لسنة 1832م ووجدنا فيه التقسيمات الحالية للقبيلة مع العلم أن كتاب دولوشاتولي لم يصدر إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبالضبط في سنة 1891م، وأورد فيه تقسيمات سلالية نسبها للقبيلة تختلف عن تشكيلتها الحالية مما يبرهن أن المصدر الذي اعتمد عليه لا علاقة له بالقبيلة، وإنما يتعلق بمجموعة بشرية أخرى قد يكون دولوشاتولي اختلطت لديه المعلومات التي استقاها من مصدر شفوي ولم يرتبها جيدا. أما قبيلة أولاد بوعشرى فتتكون من ثلاثة اعراش وهم أولاد أعمر وأهل اعلي ويحيى ثم أهل عدي، وكل عرش من هذه الاعراش الثلاثة يضم سبعة أفخاذ أو قسامات أو أخيام كما يحلو البعض تسميتها: فعرش أولاد أعمر يتكون من سبع قسامات أو أفخاذ وهي كالأتي: أهل أحمد، أهل بلة، أهل حمو، أهل اعلي، أهل موسى، أهل لحسن، أهل يحيى. وعرش أهل اعلي ويحيى يتكون من الأفخاذ الآتية: أهل بوربوح، أهل احميتي، أهل داوود، الطيور، لمشاتيت، لكوارى، أهل معيوف. وعرش أهل عدي يضم الأفخاذ أو القسامات الآتية: أهل بلگاسم، أهل الأطرش وهاتين المجموعتين يطلق عليهما أهل اعليويك وانضموا في وقت سابق لعرش عدي لكنهم الآن يسعون إلى الانفصال عنه وتكوين عرش رابع في القبيلة. ثم هناك أهل أبيه، أهل أحمد، أهل بوفوس، أهل باها، أهل لحبيب، هذين الفخذين الأخيرين يقال بأنهما هما أهل عدي الحقيقيين بينما الآخرون تمت إضافتهم أو انصهروا فيما بعد، لكن القسامات التي نسبها دولوشاتولي لأولاد بوعشرى غير موجودة فيها إطلاقا.

وثالثها المعطيات العسكرية إذ كيف -حسب تشكيلة دولوشاتولي- لقبيلة مثل أولاد بوعشرى أن تمتلك عددا كبيرا من البنادق التي يقدرها صاحب القول السالف الذكر بخمسمائة بندقية، وهو ما يتنافى مع العقل والمنطق ومع عدد أفراد القبيلة الذي لا يتجاوز عددها مائة كانون تقريبا إذا سلمنا بالإحصائيات التي قدمها لنا مونتاي بعد حوالي أربع عقود تقريبا، ومن تم فالرواية موسومة

بالمبالغة الزائفة وبالإضافات المنمقة والتي لا تنقص على أي حال من شجاعة القبيلة، ولا تنفي ذودهم في ساحات الوغى للدفاع عن أشرفهم وأعراضهم بين القبائل، وإنما يجب التبصر والتريث أثناء نقل الأخبار وتوثيق الحقائق، ومن متهاتات الخروج عن الشروط عند نفس الشخص نفيه امتلاك الخيول لقبيلة عربية يعد الفرس عندهم عنوانا للبركة والخير، وهو ما لا يمكن أن ينفيه عاقل عارف بتقاليد العرب وأعرافهم النابعة من التاريخ والمتجذرة في الثقافة.

بل إن الشواهد تركي ما ذكر حول امتلاك القبيلة للخيول والإبل معا استنادا إلى الوثائق المحلية¹، التي تذكر أن شخصا باع أو تخاصم مع شخص آخر بسبب فرس أو (عودة) إلى آخره من التسميات، إضافة إلى ذلك فقد جاء في وثائق الأرشيف الدبلوماسية الفرنسي بنانت أن أولاد بوعشري كانوا يملكون الخيول خلال الثلاثينات من القرن العشرين لكن العدد كان متواضعا² إذ لم يكن في استطاعة كل أفراد القبيلة أن يمتلكوا الخيول، وبذلك فدلالت امتلاك الخيول لدى أهل القبيلة تدحض نفي هذا الأمر من قبل دولوشاتولي، مما يبين أن هذا الأخير بدوره لم يزر القبيلة وإنما سمع أو نقل عن آخرين.

كما قدّم ماركيث دوسيجونزاك (Marquis de Segonzac) معطيات لا تختلف عن زملائه المستشرقين كثيرا، فمعلوماته عن القبيلة كانت قليلة وسماهم بدوره آيت بوعشرة أو آيت بو العشرة (Ait Bou- Achra) أو (Ait Bou el - Achra) وزاد: إن قائدهم هو نفس قائد آيت مسعود، وهو القائد زروال والذي يسكن في تيدالت ويحكم القبيلتين، وأشهرهم هو الحسن بن المعيوف³، وأضاف إن مصادر المياه والمصارف التي تتوفر عليها هي خمسة عشر قامة، وقال إن حدودهم من الشمال آيت ياسين، ومن الشرق كل من قبيلتي إداو إبراهيم وآيت أوسا، ومن الجنوب والغرب الحمادة⁴.

¹توجد مجموعة من الوثائق المحلية التي تثبت امتلاك أفراد القبيلة للخيول ونملك نسخا منها.

²Le Davay, (Capitaine) A.D.N., Fiche de Tribu des Lansas. Maroc .D.A.I., 410, Bureau de Goulimine, le 13 Novembre 1937.

³هو لحسن أو الحسن ولد أحمد ولد اعلي ولد سالم الملقب بمعيوف، ينتمي لفضأ أهل معيوف، استشهد رفقة أخيه الحسين ضد الفرنسيين وبعض المتعاونين معهم (حيدة بن اميس) وكانا الأخوين لحسن والحسين ابنا أحمد بن اعلي معيوف رفقة جيش أحمد الهيبة، واستشهد لحسن بن أحمد هذا وهو مازال شابا صغيرا. (إبراهيم ولد محمد لأحمد، رواية شفوية ببوجدور في خريف 2016).

⁴De Segonzac, Marquis, Au Cœur de L'Atlas Mission Au Maroc 1904-1905. Emile Larose, Libraire éditeur, Paris, 1910, Pp 617 - 618.

إذن فالرحالة دوسيجونزاك بدوره سمي القبيلة بأيت بوعشرة، كما أتى بمعلومات جغرافية متعلقة بالحدود والموقع خاطئة، وهو ما يزكي فرضية عدم زيارته للمنطقة، خاصة وأنه ألف كتابه هذا في الفترة التي كانت فرنسا تجمع فيها المعطيات عن المغرب من أجل التعرف عليه ودراسته، ويبدو أن دوسيجونزاك زار جبال الأطلس وسوس لكنه لم يزر واد نون ومناطق نفوذ قبيلة أولاد بوعشرى.

يتبين من خلال المعلومات التي أدلى بها دوسيجونزاك أنها تتضمن مجموعة من الأخطاء، منها أن قبيلة آيت ياسين تقع إلى الشمال من قبيلة أولاد بوعشرى، ومن تم فمعلوماته استقاها من أجنبي عن القبيلة والمنطقة أو أنه بدوره نقلها عن أحد زملائه المستشرقين، وخاصة اسم القبيلة الذي يتشابه عند الكثير منهم، أما الحسن أو لحسن بن معيوف فهي أسرة من أسر قبيلة أولاد بوعشرى فعلا، وقوله أن القائد زروال يسكن تيدالت وهو نفس قائد أولاد بوعشرى، يتنافى مع الحقيقة فزروال ينتمي لقبيلة آيت مسعود ولم يسبق له الاستقرار في تيدالت¹، ولم يرد في المصادر أن أولاد بوعشرى كانت تابعة لقيادة خلال الفترة التي يتحدث عنها الرحالة دوسيجونزاك.

أما عدد قامات المياه فالمعروف أن منطقة إروالن بالرغم من تموقعها في مجال صحراوي أو ما قبل صحراوي شبه جاف إلا أنها تتوفر على المياه بكثرة، ولعل ذلك يبدو واضحا من خلال عدد العيون الموجودة بالمنطقة، والآبار غير العميقة مما يدل على أن المنطقة غنية بالمياه الجوفية.

وبحسب بول مارتي (Paul Marty) في كتابه: قبائل موريتانيا العليا، الذي حدد خيام القبيلة بسبعين خيمة²، وسماههم بقبيلة آيت بوعشرة (Ait Bou-Achra)، ونسبهم للف آيت عثمان أو بلة (تكنة الشرق)³، وقال أيضا أن الشخص المعروف داخل القبيلة هو الخليل ولد بوتوميت، ومركزه هو "كدية" تسكالة⁴، وقال أيضا إنهم يتحدثون بالأمازيغية والعربية⁵.

¹سليمان ولد داوود ولد الخليل (صوعاي)، في رواية شفوية بالعيون، في صيف 2015.

²Marty, Paul, les tribus de la haute Mauritanie. Publication du comité de l'Afrique français, Paris, 1915, P 6.

³ibid. p 62.

⁴تقع كدية تسكالة جنوب جبل تاييوضت، يطلق عليها الأهالي جبل الكدور، تقع بالقرب من أم العويتكات وهي عبارة عن سلسلة جبال قصيرة ومتصلة لكنها عندما اقتربت من وادي درعة بدأت في الارتفاع التدريجي.

⁵Marty, Paul, op cit, p 69.

في الحقيقة لا تتوفر على معطيات دقيقة لعدد أفراد وعدد خيام القبيلة في تلك الفترة، باستثناء وثيقتين في الأرشيف الديبلوماسي بنانت تعودان على التوالي لسنتي 1940 و1941م خاصتين بقبيلة لنصاص، وذلك حسب إحصاء المواشي والممتلكات الذي تقوم سلطات الحماية مع نهاية كل موسم، فالوثيقة الأولى المؤرخة ب 23 دجنبر 1940م تذكر أن عدد كوانين القبيلة بلغ 138 كانوا¹، وفي السنة الموالية انضاف إليهم كانون جديد وبالضبط بتاريخ 12 نونبر 1941م أصبح عددهم 139 كانوا².

إن معطيات بول مارتي ضعفها ورد عند فانسان مونتاي بمائة وأربعون كانوا أو خيمة كما حددها بكل من تيدالت وإروالن، وعشرون كانوا أخرى بتعجيجت³، مما يعني أن المعطيات التي قدمها لنا مونتاي كانت دقيقة جدا باعتباره كان يشغل منصب ضابط للشؤون الأهلية خلال الفترة نفسها، ومن المرجح أنه اعتمد على وثائق خاصة بالأمورية الأهلية بحكم أنه كان على رأس دائرة غوليمين خلال سنة 1947م⁴، وعندما قمنا بالمقارنة بين المعطيات التي قدمها لنا فانسان مونتاي بوثنائق أرشيف نانت تبين أن المعطيات الواردة في الوثائق هي نفسها التي وردت عند مونتاي، مما يعني أن هذا الأخير اعتمد فعلا على أرشيف ووثائق الأمورية الأهلية.

لكن يبدو أن بول مارتي لم يسبق له أن زار القبيلة في مضاربها، كما لم يسبق له أن زار المجال النكني عموما، والمعطيات التي أوردها هو ومن سبقوه وحتى البعض ممن أتوا من بعده معطيات تقريبية فقط، فهو أورد مجموعة من المعطيات الخاطئة، فقد سمى القبيلة بأيت بوعشرة، فأفراد القبيلة لو كانوا هم من أدلى له بهذه المعطيات فلن يسموا أنفسهم بأيت بوعشرة، وهذا نستشفه من خلال الوثائق المحلية التي ترد فيها دائما تسمية أبناء أو أولاد قبل التاريخ الذي يتحدث عنه بول مارتي بكثير.

¹Haguenin, (Lieutenant) A.D.N., Fiche de Tribu des Lansas Maroc .D.A.I., 410, Poste de Taghjicht, Circonscription de Goulimine, 23 Décembre 1940.

²ANONYME. A.D.N., Fiche de Tribu des Lansas. Maroc. D.A.I., 410, Circonscription de Goulimine, le 12 Novembre 1941.

³Vincent, (Monteil). Notes sur tekna. Institute des Hautes Etudes Marocaines Edition Larose, Paris, 1948, p 7.

⁴Monteil (Capitaine), A.D.N., Tribu id Brahim. Maroc. D.A.I., 410, Circonscription de Goulimine, le 26 Décembre, 1947.

لازال أفراد القبيلة إلى حد الساعة يصحون التسمية عندما يناديهم أجنبي عنهم بآيت، ولا يحبون من يناديهم بهذا الاسم هذا من جهة، ومن جهة ثانية قوله بأن أشهر أفراد القبيلة هو الخليل ولد بوتوميت، فاسم بوتوميت لا يوجد في القبيلة، ومن خلال التحريات الميدانية التي قمنا بها تبين لنا أن هذا الاسم هو اسم لعائلة كبيرة في آيت يدر بآيت أوسا، قد يكون بول مارتي قد اختلطت عليه المعطيات التي استقاها ولم يرتبها جيدا، فاسم الخليل مشهور في القبيلة لكن إسمه الخليل ولد داوود¹، أما اسم أو لقب بوتوميت لا يوجد ضمن تشكيلة قبيلة أولاد بوعشري.

أما أنهم يتحدثون بالأمازيغية والعربية فهذا المعطى قد يكون صحيحا، لأن أفراد القبيلة وتكنة الشرق عموما يتحدثون بتشلحيت، نظرا لمجاورتهم للأمازيغ، وخاصة بعض الأفراد من قبيلة أولاد بوعشري الذين يحيط بهم الأمازيغ من كل النواحي (لنصا)، إضافة إلى أنهم أعضاء في حلف لنصا، وتحدثوا الأمازيغية لاعتبارات عديدة منها المصالح المشتركة والجوار والمصاهرة والتجارة والرعي وغيرها من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين هذه القبائل التي يجمعها إرث وتاريخ مشترك.

فقد أورد بول مارتي عند تقسيمه لتكنة معلومات مغلوبة عن تشكيل هذه الاتحادية، ففي تكنة الشرق مثلا نسي أن يذكر قبيلتي آيت زكري وآيت بو هو ضمن تشكيلة لنصا التابعة لآيت عثمان أو بلة؛ فالأولى تضم كل من قبائل لنصا وآيت أوسا، أما آيت بلة فتضم كل من أزوافيط وآيت ياسين وآيت مسعود وآيت أحما².

تحدث فريديريك دولاشابيل (F. de la Chapelle) في كتابه: تكنة الجنوب المغربي عن آيت إبراهيم في حوالي صفحتين، أما آيت النص فلم يكتب عنها مجتمعة إلا فقرة صغيرة والتي سماها بقبائل متنوعة، وهي أربع قبائل بالإضافة إلى آيت بوعشرة (Ait Bou Achra) كما أسماها، كل من آيت

¹ هو الخليل ولد داوود ولد الخليل من فخذ أهل داوود من عرش أهل اعلي ويحيى، حسب ما أدلى لنا به حفيده سليمان ولد داوود ولد الخليل (صوعاي)، في رواية شفوية له بالعيون في صيف 2105.

² كانت قبيلة آيت احما² ضمن لف آيت الجمل التكني خلال القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن دخلت في صراع مع غريمتها الأولى آيت إبراهيم وانتهى الصراع بانهزام آيت احما² لتنتقل هذه الأخير إلى لف آيت عثمان أو بلة. (مصطفى ناعمي، مادة آيت إبراهيم، ضمن: معلمة المغرب. ملحق ج 3، ج 26، ص 97).

بوهو وآيت زكري وآيت موسى أو داوود؛ هذه الأخيرة التي اعتبرت ومازالت جزءاً من قبيلة آيت إبراهيم.

يقول عنهم دولاشايبيل: إن آيت بوعشرة ينتمون للنصاص (وهذا الاسم جاء أصله من تجمع هذه المجموعات مع آيت إبراهيم، كما قال: إن هذه المجموعة مكونة من مجموعة من القبائل وهم تابعين لآيت إبراهيم، ولا يلعبون أي دور سياسي، وأن هذه القبائل الرحلية فهم يصلون في ترحالهم حتى مجال آيت الجمل، ويتبعون أعراف "إغفيرن"¹، وقراهم توجد على ضفاف وادي صياد، ويوجدون بين نون ودرعة، وأن آيت بوعشرة يستقرون في تيدالت على الضفة اليسرى لوادي صياد، وجزء منهم يستقر في تغجيجت²، كما قال: أن البلدة تيدالت (Taidelt) تقع على الضفة اليسرى لوادي صياد³.

يبدو من خلال المعطيات التي جاء بها دولاشايبيل أنها متناقضة منها أنه سمي القبيلة بآيت، وقوله أن آيت النص لا يلعبون أي دور سياسي؛ فحسب ما سمعنا من الروايات الشفوية المعاصرة أنه وإلى عهد قريب أي قبيل دخول الاستعمار الفرنسي إلى واد نون كانت تيدالت هي مركز آيت النص، بحيث كان يتم فيها حل كل مشاكل قبائل لنصاص، وهو ما جاء به الباحث في تاريخ واد نون مصطفى ناعمي بقوله: تجمع تيدالت الفصائل المحلية المتصارعة، وذلك نظراً لقدرة أهلها على تنظيم التعايش ونظام التحالفات⁴.

لكن لا يجب أن ننسى أن الفترة التي يتحدث عنها دولاشايبيل في منتصف الثلاثينات والتي صادفت السيطرة الفرنسية على واد نون، والتي تغير فيها كل شيء، وبالتالي أصبحت تغجيجت هي المركز الجديد للنصاص، وهو مركز تابع لنفوذ مكتب گوليمين المسمى، آنذاك في الأوساط المحلية بـ "بيرو أعراب"⁵، التابع إدارياً لتراب درعة السفلى.

إضافة إلى كون دولاشايبيل لم يزر ولم يشتغل في مجال تكنة، لذلك تبقى معلوماته عن هذا المجال أقل دقة إلا أنه كان أقرب إلى مجالها بتزنيث

¹المعروف أن قبائل تكنة تتبع أعراف كزولة وتحكات أما أعراف إغفيرن فلا توجد في هذه القبائل.

²F.De la Chapelle, les tekna des sud Marocain. Étude géographique historique et sociologique, 1934, Pp 107 -108.

³ibid. p 72

⁴مصطفى ناعمي، مادة تيدالت، ضمن: معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1984، ج7، ص 2253.

⁵سليمان ولد داوود ولد الخليل (صوعاي)، رواية شفوية بالعيون، في صيف 2015.

وموريتانيا حيث زاول مهامه العسكرية هناك، علاوة على استثماره لأكبر قدر من الدراسات وتقارير الضباط المحتكين بمجال تكنة بشكل مباشر¹.

كانت قبائل تكنة بصفة عامة تمتلك عددا لا بأس به من قطعان الماشية وخاصة الإبل، مما كان يفرض عليها أن تبحث عن مراعي في مناطق متعددة وخاصة عندما تجف منطقتهم، وقبائل لنصاص لا تخرج عن هذا التقليد الوادوني، وإن أشار دولاشابيل أنهم يصلون في ترحالهم إلى مناطق نفوذ آيت الجمل، قد يكون هذا المعطى صحيحا بالرغم من أننا لم نعثر على وثائق تصب في هذا الشأن، ولا نستبعد ذلك لكوننا وجدنا وثائق لقبيلة أولاد بوعشرى وصلوا فيها إلى مزوضة وحاحا ودكالة ومناطق أخرى أبعد، وأغلب الوثائق المتعلقة بترحال قبيلة أولاد بوعشرى تهم منطقة سوس تحديدا وشمالها.

كما يوجد في المنطقة الممتدة من سهل سوس إلى وادي درعة جنوبا حلفان قديمان هما تاكوزولت وتاحكات، والمعروف أن جميع قبائل تكنة تتبع أعراف كزولة أو النحلة الكزولية²، وبالتالي فأولاد بوعشرى ينتمون لهذا الحلف الأخير، أما أعراف إغفيرن فربما كان يقصد بها دولاشابيل أغفيرن وليس اغفيرن وهي أن تحتمي القبيلة بلف غير لفيها، وهذه الحالة استثنائية بحيث تقوم مانحة الحماية بتسخير مجموعة من الأسر كرهائن عند طالبي الحماية³.

أما المعطيات الأخرى التي وردت عند دولاشابيل كون أفراد القبيلة يستقرون في تيدالت، وجزء منهم في تغجيجت، وهذا صحيح وهو ما جاء به زميله وخلفه مونتاي، إضافة إلى كون جزء منهم أو بالأحرى بعض العائلات مازالت تستقر هناك⁴، وقد قدرهم هذا الأخير بحوالي عشرين كانونا، وقال إن قرية تيدالت تقع على الضفة اليسرى لوادي صياد، وهو معطى جغرافي غير دقيق إذ تقع تيدالت جنوب وادي صياد وبعيدة من ضفته، الشيء الذي يبرهن أن دولاشابيل لم يزر المكان وإنما سمع أو نقل عن آخرين، وخاصة دولوشاتولي ودوسيكونزاك لا اعتبار أن أعمالهما نشرت قبل أن يكتب دولاشابيل كتابه هذا،

1 عيدات الشمسي، آليات بناء القبيلة في الصحراء الأطلنتية: قراءة نظرية، ومراجعة في الكتابات الاستعمارية، تنسيق: عبد الكريم مدون، ضمن: البنيات الاجتماعية والاقتصادية بالصحراء، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، ط1، 2011، ص 81.

2 محمد المختار السوسي، المعسول. مطبعة الشمال الإفريقي، الرباط، 1961، ج19، ص 80.

3 مصطفى ناعمي، أهمية علاقات الرحل والمستقرين في التطور التاريخي لمجموع اتحادية تكنة، مجلة البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، ع 38، السنة الثالثة والعشرون، الرباط، 1988، ص 273-274.

4 أغلب هذه العائلات من عرش أهل عدي وهم من: أهل احماو او حيماد، أهل بركة أو اسويلم، لمشاتيت.

ولكون كتابة تيدالت عندهما قريبة من كتابة دولاشايل مع اختلاف في حرف واحد، لذلك رجحنا أن يكون قد نقل من أحدهما هذه المعلومات، وإن كانا هما بدورهما لم يزرا المنطقة.

أما الضابط الفرنسي الآخر دولارييل (De la Ruelle) فقد كتب تقريراً عن قبائل المنطقة سماه: "مساهمة في دراسة سكان الناحية الجنوبية الغربية للأطلس الصغير: تكتة البربرية بأعالي وادي صياد إد إبراهيم والقبائل التابعة لهم"، الصادر عن مصلحة وثائق مركز الدراسات العليا الإدارية والعصرية حول آسيا وإفريقيا التابع لجامعة باريس، والذي انتهى من تدوينه بتزنيته يوم 25 أبريل 1941م، تحت رقم 457، ويحتوي هذا التقرير على 145 صفحة.

إن التقرير الذي كتبه دولارييل وهو تقرير غير منشور، ويعتبر الآن في نسخة رديئة ولا تقرأ إلا بصعوبة بالغة، بالرغم من ذلك فإنه يتوفر على معلومات غاية في الأهمية، وخاصة منها ما يتعلق بأصول القبيلة وعلاقتها بأيت إبراهيم ولنصاص وقبائل أخرى منها أولاد بالسباع وأهل الشيخ ماء العينين، كما يضم هذا التقرير الذي يعد الآن مصدراً مهماً في تاريخ المنطقة معلومات مهمة عن تاريخ القبيلة وخاصة خلال بداية القرن الثامن عشر، يمكن القول إن هذا التقرير من أهم ما كتب عن تاريخ قبائل المنطقة (لنصاص).

للإشارة فالضابط دولارييل الذي كان يحمل رتبة نقيب سبق له أن زاول مهامه بمكتب تغجيجت كرئيس لهذا المكتب في السنوات الأولى من الحماية الفرنسية على المنطقة سنة 1938م¹، ولا يستبعد أن يكون دولارييل قد التقى بأفراد من أولاد بوعشرى، فالأكيد أنه التقى بالشيخين الذين كانا مناصبين على القبيلة آنذاك وانفالييس الاستعمار، كما لا يستبعد أنه زار تيدالت خلال مرحلة رئاسته لمكتب تغجيجت، لكنه لم يذكر أنه اعتمد على مصادر شفوية من قبيلة أولاد بوعشرى. وقد أطلقنا هذه التسمية (انفالييس الاستعمار) على جهاز انفلاس أو انفالييس الذي كانت تعينه السلطات الفرنسية للقيام بجزء من المهام التي كان يقوم بها آيت لربعين سابقاً، وأهمها الجانب المتعلق بالإرث، وأطلقنا عليه هذه التسمية لأن تعيين أعضائه كان يتم من لدن مكتب تغجيجت آنذاك، وبالتالي فقد نحى هذه الجهاز منحى جديد في التعاطي مع السلطة؛ أي أن هذه الأخيرة

¹De La Ruelle (Capitaine), A.D.N, Fiche de Tribu des Lansas. Maroc .D.A.I, 410, Poste de Taghicht, Bureau de Goulimine, le 05 Novembre 1938.

أصبحت فردية وأصبحت مرتبطة أكثر بالاستعمار تحت غطاء أن أفراد القبيلة هم من يصدرن أو يشاركون في إصدار الأحكام التي كانت قاسية على أفراد القبيلة الذين كانوا يخالفون أوامر المستعمر، إضافة إلى جهاز المقدمين والشيخ، لهذا نجد أن السلطة تغير مفهومها في إطار القبيلة وعلاقتها بالاستعمار خلال هذه الفترة، وهذا ما يبرهن عليه الصراع حول السلطة بعد وفاة الشيخ الحسين ولد إبراهيم سنة 1952م بين مجموعة من الأفراد الذين كانوا أداة طيعة في يد المستعمر إضافة إلى بعض الأفراد المحسوبين عليهم.

يحتوي هذا التقرير أو هذه المونوغرافية على معطيات مهمة خاصة بلنصا وأولاد بوعشري، وكان أيضا أكثر تخصصا من الفرنسيين الآخرين الذين اهتموا بتكنة، فقد ذكر فيه مجموعة من المعطيات الخاصة بأولاد بوعشري ولنصا، ويظهر من خلال هذا التقرير أنه اعتمد على مصادر متنوعة منها بعض الوثائق المحلية، وبعض الروايات الشفوية نموذج القائد الحاج أحمد اضرضور الذي لم يفارق الكاتب الضابط أثناء إنجازهِ لهذا العمل المونوغرافي كما صرح بذلك في تقريره¹.

إن المعلومات التي قدمها الضابط دولارييل في تقريره كانت مشابهة إلى حد ما للمعلومات التي قدمها زميله وخلفه مونتاي في مونوغرافيته عن قبائل تكنة بصفة عامة، لكن المعلومات التي قدمها مونتاي عن قبيلة أولاد بوعشري كانت قليلة مقارنة مع ما قدمه دولارييل، وإن كانت هذه المعلومات المتضمنة في تقرير هذا الأخير والخاصة بالقبيلة متفرقة، وتميز تقرير دولارييل بغزارة المعلومات عن القبيلة المدروسة وعن بقية قبائل لنصا لأن هذه القبائل الأربع كانت تعيش ظروف متقاربة إلى حد ما وعاشت تاريخا مشتركا.

تضمن هذا التقرير معلومات غاية في الأهمية، وهي للإشارة نادرة ووقفنا عليها من خلال تتبع مشجر القبيلة في الوثائق المحلية الخاصة بالقبيلة ومنها قوله إن أول من دخل من القبيلة هو داوود بن أحمد بن إعيش، وهذا الأمر يجعلنا لا نشك في كون دولارييل قد وقف فعلا على بعض الوثائق المحلية، وهناك ما يبرر كون دولارييل قد وقف فعلا على الوثائق المحلية بحيث هناك مجموعة من الوثائق المحلية المترجمة إلى الفرنسية في هذا التقرير، ولأننا

¹De la Ruelle, les tekna. Op cit. p: 13.

صادفنا في إحدى الوثائق¹ المحلية المتعلقة بأولاد بوعشرى بتعجيجت خلال بداية القرن الثامن عشر مشجر للقبيلة ينتهي بداوود بن أحمد بن إعيش. أما إذا كان مصدر هذا الأخير الرواية الشفوية لأفراد من القبيلة فإن ما وقفنا عليه أن الأشخاص الذين استجوبناهم قد عاصروا هذه الفترة، ولم يذكروا لنا اسم إعيش، وللإشارة فالرواية الشفوية تذكر أن الجد التي تنحدر منه القبيلة يدعى داوود بن أحمد التكني²، لكن الرواية الشفوية المحلية لا تضيف أسماء أخرى على أحمد أو احمد هذا، وتعتبر أن القبيلة ككل تنحدر منه؛ مما يؤكد لنا أن القبيلة تشكلت بتعجيجت أو أعادت ترصيص صفوفها خلال هذا العهد، وأنها وفدت للمنطقة خلال هذه الفترة بالضبط لأن المشجر يقف عند هذا الشخص المدعو داوود، وأن أولاد بوعشرى كانوا تحت وصاية آيت إبراهيم وهم جزء من لنصاص (آيت النص)، والقبيلتين على ما يظهر أنهما دخلتا في حرب بقيت آثارها وخيمة فيما بعد، فبالرغم من قبول آيت إبراهيم لوصاية أولاد بوعشرى إلا أن آيت إبراهيم مازالوا يتذكرون طبيعة التوحش التي كان يتميز بها أولاد بوعشرى³. وحتى الرواية الشفوية المحلية ما زالت تتحدث عن الصراع الذي دار بين آيت إبراهيم وأولاد بوعشرى⁴.

كان آخر من أمدنا بمعلومات عنهم من الأجانب خلال عهد الحماية الضابط الفرنسي فانسان مونتاي (Vincent Monteil) في كتابه: ملاحظات أو تقييدات حول تكنة، (Notes sur les Tekna) الذي كان قريبا من مجال القبيلة، وكان يشتغل بمركز تعجيجت وبالتالي فهو على معرفة جيدة بها، وقد أَلَّف كتابه هذا سنة 1945م بتزنييت، بعدما جمع مادته ما بين سنوات 1939 و 1943م حينما كان يزاول مهامه كضابط للشؤون الأهلية بدائرة غوليمين، فاشتغل بداية بمركز تعجيجت سنة 1939م وبعدها بمركز آسا ثم بگوليمين⁵،

1 نملك نسخة مصورة من هذه الوثيقة والمتعلقة بعشر أولاد أعمار خلال بداية القرن الثامن عشر بتعجيجت.

2الحسين ولد البخاري ولد مولود (الدرگموز)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015.

3De la Ruelle, les Tekna berbérophones du haut oued seyad les id Brahim et leurs tributaires. Documents C.H.E.A.M. Tiznit, 1941. N : 457, p 14

4مولود ولد محمد ولد العبد (العاطي)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015.

5فانسان مونتاي، تقييدات حول تكنة. ترجمة هيبنت الحيرش، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2013، ص 10.

وقال إن اسم القبيلة إد بوعشرة (Id Bou -Achra) وتنتمي للنصاص 1- Id- (Bu Asra)².

بالإضافة إلى التسمية التي أوردها والتي تتميز عن باقي الفرنسيين أو الأجانب الذين كتبوا عن القبيلة "آيت" إضافة إلى ذلك قال إنهم ينتمون للف آيت عثمان أو بلة، ويبلغ عددهم بمركز تغجيجت 20 كانوا أو خيمة، وقال إنهم ينتمون للنصاص التي يبلغ تعدادهم 340 كانوا، منهم 140 كانوا من أولاد بوعشرى وتضم ثلاث قبائل هي: إد بوعشرة وآيت زكري وآيت بوهو³. فيما ذكر لنصاص في مكان آخر ولم يذكر أولاد بوعشرى من ضمنهم، بل ذكر القبائل الأربع كل من آيت إبراهيم وآيت موسى أو داوود وآيت زكري وآيت بوهو⁴.

إذن فالمعلومات التي وردت في تقارير ضباط الشؤون الأهلية الفرنسيين عن تكنة الشرق عموما ولنصاص خصوصا؛ عند كل من (F. De و p. Marty و V. Monteil و De la Ruelle. و la Chapelle) نجد فيها أحيانا بعض التطابق، خاصة عندما يتعلق الأمر بتشكيلة لنصاص مع بعض الاختلافات الطفيفة.

لكن تستوقفنا أحيانا الإحصائيات التي وردت عند هؤلاء الضباط، والتي قد نعزوها إلى اختلاف الفترات التي كتبت فيها هذه الكتب أو التقارير، فأحصائيات بول مارتي تعود إلى سنة 1914م في إطار حديثه عن قبائل موريتانيا العليا، أما دولاشايبيل أثناء حديثه عن تكنة الجنوب المغربي فتعود إحصائياته إلى سنة 1934م أي بعد عقدين كاملين، وهي السنة التي سيطرت فيها فرنسا على واد نون وتسمى محليا بسنة "ملكي لحكامه"⁵، وأخيرا الضابطان دولارييل وفانسان مونتاي التي تعود إحصائياتهما إلى الفترة الممتدة ما بين 1938 و1943م،

1 Vincent. Monteil, op cit, p 7.

2 ibid. p 12.

3 ibid. Pp 6 -7

4 ibid. p 10

⁵يحقب لهذه السنة عند قبائل الصحراء بعام "ملكي لحكامه"، وهي السنة التي التقت فيها الفيالق الفرنسية والاسبانية عند بئر أم أكرين في دجنبر 1934، وفيه التقى ممثلي إفريقيا الغربية أي الجيوش الفرنسية القادمة من كل من موريتانيا والجزائر مع تلك القادمة من شمال المغرب وأيضا مع السلطات الاسبانية بالساقية الحمراء ووادي الذهب، وقد جاء لقاء بئر أم أكرين عقب احتلال فرنسا لتندوف بتاريخ 31 مارس 1934. (محمد دحمان، مادة ملكا لحكامه بملحق الجزء 3، الجزء 26 الخاص بالصحراء، ضمن: معلمة المغرب).

وإحصائياتهما هي ما يمكن القول أنها قريبة من الصحة لاعتبارات عديدة بالرغم من أنها كانت آخر إحصائيات إلا أنها أيضا كانت فرنسا قد أحكمت فيها السيطرة على المنطقة.

إن الضابطين الفرنسيين دولاريل وفانسان مونتاي كانا ضابطين للشؤون الأهلية بمكتب ودائرة غوليمين¹، وفسح لهما قريهما من المنطقة الاطلاع على وثائق وأرشيفات نظام الحماية، إضافة إلى سيطرة فرنسا على المجال مما سمح لهما أن يدليا بمعلومات صحيحة أو قريبة من الصحة، بحكم احتكاكهما بالسكان والمجال، وأتيا بمعلومات صحيحة كون القبيلة قليلة العدد، وأفرادها معروفين فيما بينهم فإنهم يذكرون أهل فلان وأهل فلان، فقد ذكر مونتاي أن أربعين كانوا من إد بوعشرة تقطن بتنجيجت وهذا صحيح، فمازالت بعض العائلات تقطن هناك إلى يومنا هذا ويسمون بإد بوعشرة ودوارهم أو بالأحرى قصرهم هناك يحمل نفس التسمية².

يبدو إذن من خلال المعطيات التي وردت عند هؤلاء الأجانب - بخصوص قبيلة أولاد بوعشري- أنها متباينة شكلا ومضمونا، فمن خلال اسم القبيلة يختلف من حيث كتابته بين هؤلاء، ثم اسم بلدة تيدالت تختلف فيما بينهم، ومعلوماتهم عن القبيلة مضطربة وخالية من الصبغة العلمية، إضافة إلى كون معلوماتهم عن القبيلة كانت ضعيفة في مجملها، ومن هنا نتأكد أن هؤلاء لم يسبق لهم أن زاروا أماكن استيطان القبيلة وإن كان منهم من يعترف بذلك، ونستثني منهم طبعاً مردخاي أبي السرور الذي يقر بذلك، وهو كان أول أجنبي زار القبيلة في مضاربها والذي أتى بمعلومات عنها وإن كانت قليلة، فقد ذكر اسم القبيلة بصيغة أولاد، ومعلوماته عن المجال الجغرافي كانت نسبياً غزيرة وتتصف بالدقة، ومن هنا نتأكد أنه زارها، إضافة إلى أن هناك شواهد أخرى توضح ذلك منها الرواية الشفوية المحلية التي تقول أن يهوديا زار تيدالت في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أما الضابط الفرنسي مونتاي فكان آخر من زودنا بمعلومات عن القبيلة من الأجانب، كان يزاول مهامه كضابط للشؤون الأهلية بدائرة غوليمين، وبالتالي فقد سمح له منصبه كرئيس لدائرة غوليمين أن يزودنا بمعلومات عامة وقريبة

¹كان غوليمين مكتب في بداية الحماية الفرنسية على المنطقة، ويعرف محليا ببيرو أعراب، إلى حدود سنة 1940 حيث تحول إلى دائرة أو مقاطعة.

²Dilberger (Lieutenant), A.D.N., Tribu des id Brahim. Maroc .D.A.I., 410, Poste Taghijicht, bureau de Goulimine, le 10 Novembre 1935.

من الصحة عن القبيلة كعدد الكوانين في تيدالت وتغجيجت، لكن اسم القبيلة لم يكن مضبوطا عنده احتمال أنه لم يأخذه من أفواه أهلها، وإنما أخذه من أفواه رجال قبيلة أخرى أمازيغية (لنصاص) لأن أفراد قبائل لنصاص وقبائل تكنية أخرى مجاورة لهم في المجال مازالوا ينادونهم بأيت بوعشرة، والسبب ربما هو أن هذه القبائل مازالت تعاني من عقدة التمزيع التي تشكل بالنسبة إليهم وصمة عار، فإذا كانت بعض القبائل الأمازيغية تعزز بأمازيغيتها وتحافظ عليها وتعتبرها جزءا من تراثها الثقافي اللامادي، فإن هناك بعض القبائل أو بعض المجموعات البشرية الأخرى الأمازيغية ومن دون شك وخاصة بواد نون، التي حاولت التخلص من تلك العقدة واستعرب أفرادها لكنهم لم يتخلصوا من هذه العقدة بسهولة، بحيث أن بعض علامات وأثار التمزيع مثل "أيت" لازالت لصيقة باسم القبيلة، إضافة إلى بعض المظاهر الأخرى منها أسماء وألقاب بعض الأفاخذ والعائلات داخل القبيلة التي يظهر أنها تحمل معاني ودلالات أمازيغية واضحة، لكن الغريب في الأمر هو أن أفرادها يتحدثون باللهجة الحسانية ويلبسون ملابس تتطابق ومناخ المنطقة الشيء الذي يجعلهم يعتقدون أنهم عرب اقحاح، وبالتالي فهم ينسلخون عن هويتهم الحقيقية، فما معنى أن تكون أمازيغيا ولا تحب أن تكون كذلك؟ أو تحاول أن تتصنع ثقافة أخرى بديلة لتتخلص من أصولك الحقيقية! وإن كان معروفا أن معنى الأمازيغي هو الإنسان الحر، لكن يبدو أنه لا أحد يستطيع وبكل سهولة أن يثبت أنه عربي أو العكس، ولا أحد لا يستطيع أن ينكر أن جميع قبائل المنطقة هي مزيج من العرب والأمازيغ والزنوج، إن العربي البيضاني تحس بكونه إنسان عادي في طبعه وتصرفاته سواء في المأكل أو في الملبس أو في الحديث، لكن المتصنع للثقافة يظهر في تصرفاته نوع من الارتباك، لأن الطبع يغلب على التطبع في نهاية المطاف. ونفس الأمر ينطبق على الضابط دولارييل الذي سبقه وكتب تقريرا مفصلا عن لنصاص الذي سماهم بدوره بإد بوعشرة¹، والضابطين الفرنسيين وغيرهما من الفرنسيين قد لا يتقنون العربية والأمازيغية حتى يدققون في الأسماء جيدا.

¹ يمكن القول أن الضابطين دولارييل ومونتاي كتبوا الاسم الذي يوجد في الوثائق الأرشيفية (أرشيف الأمورية الأهلية سواء الموجود بمركز تغجيجت أو بمكتب أو دائرة كوليمين)، وبالتالي فإن التسمية التي جاء بها كانت مختلفة عن التسميات الأخرى التي جاءت في الكتابات التي تتحدث عن واد نون قبلهم، إذن هناك نوع من الاختلاف مع التسميات التي سبقتهم.

إجمالاً يبدو أن هؤلاء الأجانب لا يعرفون خصوصية المنطقة ولا يدققون في الأسماء ولا يكتبونها بشكل موحد، إذن فهذه البحوث لم تكن ذات أهداف علمية وأكاديمية، مما يجعل الأسماء تكتب بطرق متعددة وليس على نفس المنوال، كما أن المعلومات التي أتوا بها كانت في مجملها خاطئة وتحتاج إلى تصويب. يقصد بقبائل لنصاص القبائل الثلاث آيت بوهو وآيت زكري وأولاد بوعشري، ومع توطيد سلطات الحماية الفرنسية سلطتها على المنطقة أدمجت القبائل الثلاث في قبيلة لنصاص، واعتبرت القبائل الثلاث عبارة عن قسامات أو قسمة¹ (Fraction) تابعة لقبيلة لنصاص² (Tribu des Lansas) وأطلقت تسمية إد بوعشرة (Id Bou-Achra) على القبيلة في الوثائق الصادرة عن مؤسسات الحماية الفرنسية³، وهي نفس التسمية التي أوردتها كل من دولاريل في تقريره عن قبائل المنطقة⁴، ومونتاي في مونوغرافيته حول تكنة⁵ باعتبارهما اعتماداً على وثائق أرشيف الحماية الفرنسية.

لكننا صادفنا تناقض عند الفرنسيين فيما يخص كتابة الأسماء الصادرة عن الإدارات الفرنسية، ففي إحدى الوثائق الفرنسية الصادرة عن المحكمة العرفية لإد إبراهيم بتعجيجت والتي جاء في مضمونها قبيلة إد بوعشري فرقة ودوار تيدالت⁶؛ إذن هنا أصبحت الفرقة تطلق على البلدة، وأحياناً نصادف في وثائق أخرى قبيلة لنصاص فرقة إد بوعشرة ولدينا أنموذج لإحدى الوثائق الصادرة أيضاً عن المحكمة العرفية بتعجيجت⁷.

لا يتم الفصل أحياناً بين "إد" و"آيت" ومن هنا نجزم أن الفرنسيين لم يكونوا يعيروا اهتماماً لذلك، ففي إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية الخاصة بقبيلة لنصاص بنانت تضمنت التسميتين إد بوعشرة / وآيت بوعشرة⁸ مما يعني أنهم

¹le Davay (Capitaine), op cit.

²Dilberger (Lieutenant), op cit.

³Thoumy (Capitaine), A.D.N., Fiche de Tribu des Lansas. Maroc, D.A.I., 410, Bureau de Goulimine, le 18 Novembre 1939.

⁴De la Ruelle, les Tekna, op cit. p14.

⁵Vincent Monteil, op cit. p 7.

⁶Anonyme, Tribunal Coutumier des id Brahim de Taghjicht. Acte de procuration n° 217, 21 octobre 1950.

⁷Moureau (Capitaine), Tribunal Coutumier des id Brahim Lansas de Taghjicht. Jugement n° 268 du 1^{er} Avril 1939.

⁸De Latour (Capitaine), A.D.N., Fiche de Tribu des Lansas. Maroc.D.A.I., 410, Bureau de Goulimine, le 15 Novembre 1936.

لم يكونوا ليفصلوا بين مغزى ومعنى التسميتين، ومما يبرهن ذلك ويوضحه أكثر عندما نجد في وثائق فرنسية أحيانا تسمية إد إبراهيم وإد بوهو¹، بالرغم من أن هاتين القبيلتين تسميان بأيت وما زالتا إلى اليوم، وبعد الاستقلال أصبحت لنصاص أو أيت النص تطلق على القبائل الثلاث وأضيفت إليهم أيت إبراهيم، والآن أصبح يطلق على القبائل الأربع قبائل أيت النص مع العلم أن الصحيح هو لنصاص، لأن هناك قبيلة باتحادية أيت باعمران تسمى أيت النص².

ونسجل مجموعة من التناقضات التي تتعلق بالكتابات والمونوغرافيات الفرنسية من جهة، والوثائق الفرنسية الصادرة عن مصلحة الشؤون الأهلية من جهة ثانية، فيما يخص تسمية لنصاص وردت في معظم الكتابات والمونوغرافية الفرنسية المتعلقة بواد نون تحت تسمية أيت النص، بينما في الوثائق الأرشيفية باسم "لنصاص". وأطلق فريديريك دولاشايل مثلا على القبائل الثلاث الصغيرة تسمية لنصاص وأضاف إليهم أيت إبراهيم وسماهم بأيت النص³.

يتبين من خلال المعطيات القليلة التي وردت في الكتابات الأجنبية عن الموضوع المدروس أنها تصنف القبيلة في مواقف متعددة، يندرج جزء منها في تلك المواقف التي صرحت بها الإدارات الاستعمارية؛ ويمكن إرجاع ذلك لسببين هما: أولا القصدية الاستعمارية، والسبب الثاني هو ضعف المصادر المعتمد عليها من طرف هؤلاء الرحالة والباحثين الأوروبيين أو ضباط الشؤون الأهلية الفرنسيين وغيرهم، الذين زاروا المنطقة أو كتبوا عنها وعن القبيلة، بحيث أن الكثير ممن كتبوا عن قبيلة أولاد بوعشري غالبا ما استقوا معلوماتهم عن أشخاص ينتمون لقبائل بعيدة عن مجال القبيلة وليست لديهم المعلومات الكافية عن المنطقة، باستثناء اليهودي مردخاي الذي زار تيدالت وأقام فيها لفترة من الزمن والتقى بسكانها.

وقفنا لحد الساعة على ما أورده كل من مردخاي ودولوشاتولي ودوسيجونزاك ومارتي ودولاشايل ودولارييل ومونتاي وإن كان هؤلاء جميعهم لم يثبت أنهم زاروا القبيلة واختلطوا بأفرادها باستثناء مردخاي السالف الذكر، لكن الضابطين دولارييل وخلفه مونتاي الذين كانا قد زاولا مهامهما العسكرية بمكتب تعجيجت، فمن المحتمل إذن أو الغالب على الظن أنهما قد

¹Haguenin, (lieutenant), op cit.

²للمزيد من المعلومات في هذا الشأن ينظر: علي المحمدي، السلطة والمجتمع في المغرب نموذج أيت باعمران. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1989.

³F, De la Chapelle, tekna des sud marocain, op cit. p 41.

زارا تيدالت والتقيا بأفراد القبيلة، أو على الأقل التقيا بالشيخين الذين كانا منصبين على التوالي على القبيلة إبان هذه الفترة التي تتحدث عنها النصوص التي ترجمناها إلى العربية من خلال هذا العمل المتواضع.

يمكن القول أن الكتابات الكولونiale وخصوصا منها المنتمية لنهاية القرن التاسع عشر وبداية الثلث الأول من القرن العشرين وإلى حدود بسط السيطرة الفعلية الفرنسية على المنطقة اهتمت بمواضيع أكثر عمومية، منها موقع القبيلة وأماكن بعض المصادر المائية، وتميزت بطابع الوصف العام وتضمنت مجموعة من المغالطات عن القبيلة البوعشراوية، وحتى خلال عهد الحماية الفرنسية على المنطقة يبدو أن هذه الكتابات لم تتطور أكثر بحيث ظلت على حالها ولم تتطرق لمواضيع أكثر أهمية منها دراسة البنيات القبلية للقبيلة وجوارها وإنما اهتمت بتركيز الاستعمار، لكن ما ميز هذه الكتابات في هذه المرحلة هو الدقة أكثر من المرحلة السابقة.

يمثل الجدول أسفله جرد للطريقة التي كتب بها اسم القبيلة، ومكان استقرارها تيدالت باللاتينية عند مجموعة من الكتاب الأجانب، منهم الرحالة والسوسيولوجيين والعسكريين:

مكان الاستقرار	اسم القبيلة	اسم الكتاب	اسم الكاتب
Taidalt	Oulad Dhou'Asra	de Mogador djebel Tabayoudt par le Rabbin Mardochee abi serour	مردخاي أبي السرور Rabin Mardochee
_____	Ait achera	l'ouad Noun et tekna a la cote occidentale du Maroc ^x	جواكيم كاتيل Joachim Gatell
Tahiddelt	Ait achera	Les tribus sud ouest marocaines bassins côtiers entre sous et Draa	A. Le Chatelier الفريد دو لوشاتولييه
_____	Od bou Achra	L'islam dans l'Afrique occidentale	

مكان الاستقرار	اسم القبيلة	اسم الكتاب	اسم الكاتب
_____	Ait Bou-Achra Ait bu-Axera	Division et répartition de la population berbère au Maroc ^{xxx}	م. كويدنفيلدت M.QUEDENFELDT
Taiddert	Ait bou Achra Ait bou-el Achra	Au mission au cœur de l'atlas	إماركيز دو سيجونزاك Marquis de Segonzac
_____	Ait bou achra	les tribus de la haute Mauritanie	بول مارتى Paul Marty
Taiddert	Ait bou achra	les tekna des sud marocain	De la Chpelle دو لاشابيل

اسم الكتاب	اسم الكتاب	اسم القبيلة	مكان الاستقرار
مولاريل De la Ruelle	Tekna du haut oued seyad les id Brahim et leurs tributaires.	Bou Achra	Taidalt
فانسان مونتاي v. Monteil	Notes sur les tekna	Id bou achra Id bu asra	Taidalt

^x - **Gatell, Joachim**. L'Oued Noun et le Tekna a la Occidentale du Maroc, in bulletin de la société de géographie, 5^{ème} série, T 18, Juillet -Décembre 1869, Paris, 1869, P 276.

^{xx} – M. Quedenfeldt, Division et Répartition de la Population berbère au Maroc. Traduit de l'allemand par H.Simon, imprimeur-libraire-éditeur, Alger, 1904, p 168.

نسجل مجموعة من الملاحظات في هذا الباب منها: أن هناك من يخلط بين القبائل المشكلة لاتحادية لنصاص، فهناك من يعتبر القبائل الثلاث آيت بوهو وآيت زكري وأولاد بوعشرى هي لنصاص فقط، وخاصة خلال مرحلة الحماية، وهناك من يضيف لها آيت موسى أو داوود، وهناك من يضيف لها آيت إبراهيم أيضا، فالصحيح تاريخيا هي القبائل الأربع آيت إبراهيم وأولاد

بوعشرى وآيت زكري وآيت بوهو، أما آيت موسى أو داوود فهي جزء من قبيلة آيت إبراهيم، ولعل الدليل على ذلك هو تقسيمات الأملاك بين هذه القبائل، فتعجبت التي اعتبرت مهد ومركز آيت النص تقسم بين القبائل الأربع. ما يعاب على الأجانب أيضا هو تركيزهم على القبائل الكبيرة أو القبائل القريبة من السواحل، بحيث حظيت قبائل كبيرة في المنطقة بدراسات خاصة من طرف ضباط الشؤون الأهلية كتقرير دو فرست عن آيت أوسا¹، ودولارييل عن آيت إبراهيم²، ثم قبائل أخرى مثل آيت باعمران، وآيت لحسن، والركييات، أما القبائل الداخلية والصغيرة فإنها لم تحض منهم سوى بكتابة الاسم وإن كان يكتب خاطئا في أغلب الأحيان (أنموذج أولاد بوعشرى)، وبعض الإشارات البسيطة التي لا تتجاوز فقرة وأغلبها خاطئ كما رأينا ذلك مع هذه القبيلة. استقرت تسمية القبيلة باللاتينية على تلك التي وردت عند الفريد دولوشاتولي في كتابه: الإسلام في إفريقيا الغربية، ويبدو أن كل المستشرقين الذين كتبوا عن قبائل وادنون والصحراء نقلوا عنه الاسم غير أن هؤلاء الذين نقلوا عنه الاسم كانوا يستبدلون "آيت" أو "إد" بأولاد. أما اسم بلدة تيدالت فإنه استقر على التسمية التي أوردها هنري دو فريي نقلا عن مردخاي في التلخيص الذي وضعه الأول لرحلة الثاني.

¹De Furst (Capitaine), Etude Sur Tribu des Ait Oussa. Centre d'étude et de Recherches Entreprenre En Collaboration avec L'Association des Jeunesses Chercheurs pour les Etudes et les Recherches sur le Sahara, Imprimerie Elwatanya, Marrakech, 2011.

²De La Ruelle, les Tekna berbérophones, op cit.

البليبيو جرافيا المعتمدة:

1- الكتابات العربية

- بوم (عمر)، يهود المغرب وحديث الذاكرة، ترجمة خالد بن الصغير، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط2، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2017.
- دحمان (محمد)، عام ملكى لحكامه، ضمن: معلمة المغرب، الجزء 26، ملحق الجزء 3، دار الأمان، ط1، الرباط، 2014 .
- ناعمي (مصطفى)، مادة تايدالت، ضمن: معلمة المغرب، ج7، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1984.
- ناعمي (مصطفى)، مادة آيت إبراهيم، ضمن: معلمة المغرب، ج 26، ملحق الجزء 3، دار الأمان، ط1، الرباط، 2014.
- ناعمي (مصطفى)، مادة آيت بوهو، ضمن: معلمة المغرب، الجزء السادس، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1995.
- ناعمي (مصطفى)، أهمية علاقات الرحل والمستقرين في التطور التاريخي لمجموع اتحادية تكنة، مجلة البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، ع 38، السنة الثالثة والعشرون، الرباط، 1988.
- المحمدي (علي)، السلطة والمجتمع في المغرب نموذج آيت باعمران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1989.
- مونتاي (فانسان)، تقييدات حول تكنة، ترجمة هيبتن الحيرش، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2013.
- سبي (محمد)، الصحراء بعيون اسبانية رحلات واستكشافات 1864-1914، مطابع الرباط نت، الرباط، 2017.
- السوسي (محمد المختار)، المعسول، الجزء 19، مطبعة الشمال الإفريقي، الرباط، 1961.
- الشمسدي (عبداتي)، آليات بناء القبيلة في الصحراء الأطلنتية: قراءة نظرية، ومراجعة في الكتابات الاستعمارية. تنسيق: عبد الكريم مدون، ضمن: البنيات الاجتماعية والاقتصادية بالصحراء، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، ط1، 2011.

2 - الرواية الشفوية

- باتا (علال ولد المعطي ولد بوبكر)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2017.

- الحادگ (الحسن ولد اميليد ولد اعلي)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015.

- الدرگموز (الحسين ولد البخاري ولد مولود)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015.

- العاطي (مولود ولد محمد ولد العبد)، رواية شفوية بتيدالت، في صيف 2015.

- صوعاي (سليمان ولد داوود ولد الخليل)، رواية شفوية بالعيون، في صيف 2015.

- معيوف (إبراهيم ولد محمد لأحمد)، رواية شفوية ببوجدور، خلال خريف 2016.

3 - الكتابات الأجنبية

- A, De le Chatelier, Les tribus sud ouest Marocain bassins côtiers entre sous et Draa. Publications de l'école des lettres d'Alger, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1891.

A, De le Chatelier, L'islam dans l'Afrique Occidentale. -Paris, 1899.

- De Furst, (Capitaine), Etude Sur Tribu des Ait Oussa. Centre d'étude et de Recherches Entreprendre En Collaboration avec L'Association des Jeunesses Chercheurs pour les Etudes et les Recherches sur le Sahara, Imprimerie Elwatanya, Marrakech, 2011.

- De Segonzac, Marquis, Au Cœur de L'Atlas Mission Au Maroc 1904-1905. Emile Larose, Libraire – éditeur, Paris, 1910.

- F, De la Chapelle. Les Tekna des sud Marocain. Étude géographique historique et sociologique, 1934.

-Duveyrier, Henri. De Mogador djebel Tabayoudt par le rabbin Mardochee abi serour. Extrait du bulletin de la société de géographie, Paris, 1875.

- Gatell, Joachim. L'Oued Noun et le Tekna a la Occidentale du Maroc, in bulletin de la société de géographie, 5ème série, T 18, Juillet -Décembre 1869, Paris, 1869.

-Marty, Paul. les Tribus de la haute Mauritanie. Publication du comité de l'Afrique Française, Paris, 1915.

- M, Quedenfeldt, Division et Répartition de la Population berbère au Maroc. Traduit de l'allemand par H. Simon, imprimeur-libraire-éditeur, Alger, 1904.

- Vincent, (Monteil). Notes sur tekna. Institute des Hautes Etudes Marocaines, Edition Larose, Paris, 1948.

4 - الوثائق الأرشيفية

- Anonyme, Archives Diplomatique Nantes, Fiche de Tribu des Lansas. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Circonscription de Goulimine, le 12 Novembre 1941.

-Anonyme, Tribunal Coutumier des id Brahim de Taghjicht. Acte de procuration n° 217, le 21 octobre 1950.

-Le Davay, (Capitaine), Archives Diplomatique Nantes, Fiche de Tribu des Lansas. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Bureau de Goulimine, le 13 Novembre 1937.

- De la Ruelle, Les Tekna berbérophones du haut oued seyad les id Brahim et leurs tributaires.

Documents Centre des Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique, Tiznit, 1941, N : 457.

-De Latour, (Capitaine), Archives Diplomatique Nantes, Fiche de Tribu des Lansas. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Bureau de Goulimine, le 15 Novembre 1936.

- Dilberger, (Lieutenant), Archives Diplomatique Nantes, Tribu des id Brahim. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Poste Taghjicht, bureau de Goulimine, le 10 Novembre 1935.

- Haguenin, (Lieutenant), Archives Diplomatique Nantes, Fiche de Tribu des Lansas. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Poste de Taghjicht, Circonscription de Goulimine, le 23 Décembre 1940.

-Moureau, (Capitaine), Tribunal Coutumier des id Brahim Lansas de Taghjicht. Jugement n° 268 du 1^{er} Avril 1939.

- Thoumy, (Capitaine), Archives Diplomatique Nantes, Fiche de Tribu des Lansas. Direction des Affaires Indigènes, Maroc 410, Bureau de Goulimine, le 18 Novembre 1939.

جماليات التلقي من أجل تأويل النص الأدبي

الصديق الصادقي العماري
المسرح وفنون الفرجة

تقديم

في أواسط القرن الماضي ظهرت عدة نظريات نقدية تهتم بدراسة النص الأدبي؛ ومنها المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي...؛ التي تسلط الضوء على الكاتب وظروفه؛ كما ظهرت مناهج أخرى اهتمت بسلطة النص، وأكدت على دراسته دراسة داخلية؛ كما عند الشكلايين الروس؛ وعند «رولان بارت»، الذي حث على دراسة النص ولا شيء غير النص؛ وأكد على موت المؤلف من أجل حياة النص، من خلال تفاعلاته البنوية الداخلية. وكان لذلك الجدل والصراع القائم بين هذه المناهج النقدية والنظريات المعرفية المتباينة الأثر الواضح في ميلاد جمالية التلقي في النقد المعاصر (الهيرمنوتيكًا) مع «مدرسة كوستانس» الألمانية بقيادة «هانز روبرت ياوس» و «فولفجانج إيزر».

وقد اعتمدت هذه النظرية على المتلقي ودوره في تمام النص الأدبي؛ على اعتبار أن هذا الأخير يكتب بثلاث أياد؛ يد الكاتب ويد النص ويد القارئ؛ والنص يبقى جامدا إن لم يكن القارئ شريكا في إنتاجه؛ بل أن النص الأدبي أنشئ من أجل القارئ؛ وأنه أثر مفتوح يحيا ويستمر في الوجود من خلال تعدد القراءات. لقد أحدثت نظرية جمالية التلقي والتأويل ثورة عارمة في مجال الدراسات الأدبية والنقدية وفي تاريخ الأدب الحديث، بوصفها نمطا جديدا في الدرس الأدبي. وقد "كان أرسطو في تاريخ الحركة النقدية من أبرز رواد الفكر اليوناني اهتماما بفلسفة التلقي، أو مفهوم الجمال في استقبال النص، ففي رصيده الفكري والنقدي يتمثل لنا اهتمامه، بهذه المسألة، وكأنها محور هام يستقطب تفكيره ويستجمع فلسفته في الحديث عن أجناس الأدب"¹ إذ يعد كتابه "فن الشعر" باهتمامه على فكرة التطهير، بوصفها مقولة أساسية من مقولات التجربة الجمالية، والتي تقوم وتنهض على استجابة المتلقين وردود أفعالهم تجاه الأثر

¹محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي (دراسة مقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996، ص45.

الأدبي، أقدم تصوير لنظرية تقوم فيها استجابة الجمهور المتلقي بدور أساسي. بمعنى أن تاريخ نظرية التلقي والتأويل يعود إلى (نظرية المحاكاة) عند أرسطو. حقيقة الأمر أن الإنسان كان يمارس التلقي ويؤول ما يسمع منذ بداية حياته، ولكن كان ذلك بشكل مبسط وسهل، ثم أخذ يتدرج شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبحت لنظرية التلقي والتأويل القواعد والنظريات التي تخصها. فكل قراءة للنص الأدبي هي إعادة تأويل له في ضوء معطيات تاريخية أو آنية، إذ يخضع في تشكيلته المتميزة إلى عملية تفاعل بين خصائص داخلية وخصائص خارجية، هي تحولات السياق المنتج في ظلالة العمل الأدبي، لذلك ظهرت عدة مناهج امتثلت لتلك المعطيات وحاولت مقارنة النص مقارنة موضوعية والكشف عن مكنم الجمالية وكيفية تشكيله، على أساس أن العملية الإبداعية هي عملية معقدة. فهي تسعى في مجمل أهدافها إلى إشراك واسع وفعلي للمتلقي بغية تطوير ذوقه الجمالي من خلال التواصل الحثيث مع النصوص الفنية، حيث أن حضوره أضحى نافذاً منذ وضع اللبنة الأولى لكتابة الرواية، فانتقل من دور المستهلك إلى مرتبة الشريك المحاور الذي يملأ الفراغات بل يلزم الكاتب بتركها، كما استطاع أن يرغم الكاتب يوماً بعد يوم على إسقاط الألقعة اللغوية والبلاغية التي طالما تدرثر بها. فما هي الأصول المعرفية لنظرية التلقي؟ وما موقع النص بين التلقي والتأويل؟ وما علاقة القارئ بالنص الإبداعي؟ وما هو القارئ النموذجي؟

1. الأصول المعرفية لنظرية التلقي

جمالية التلقي كغيرها من النظريات النقدية، تقوم على مجموعة من الأسس والمرتكزات التي تشكل مرجعيتها الفكرية والفلسفية، ذلك "أن معظم المذاهب النقدية تنهض في أصلها على خلفيات فلسفية، على حين أننا لا نكاد نظفر بمذهب نقدي واحد يقوم على أصل نفسه، وينطلق من صميم ذاته الأدبية، وما ذلك إلا لأن الأدب ليس معرفة علمية مؤسسة، تنهض على المنطق الصارم والبرهنة العلمية، ولكنه معرفة أدبية جمالية أساسها الخيال والإنشاء قبل أي شيء آخر"¹.
ترجع أصول جمالية التلقي إلى فلسفتين عرفتا في ألمانيا، وهما الظاهرانية والهرمينوطيقا، حيث أن إشكالات الفهم والتأويل والإدراك، وكذا إشكالية الذاتية والموضوعية، كانت المسألة الأساسية في الهرمينوطيقا والفنومولوجيا على حد

¹ عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 79.

سواء، و لأن هذين الاتجاهين كانا يشكلان من جهة أخرى، الخلفية المعرفية التي تأسست عليها نظرية التلقي¹. فالمفاهيم التي جاءت بها هاتان الفلسفتان، قد تحولت إلى أسس نظرية توطر ترسانة من المفاهيم والأدوات الإجرائية التي صاغتها «مدرسة كوستانس» الألمانية بزعامة هانز روبرت ياورس و فولفغانغ إيزر.

✓ الشكلاونيون الروس

بحث الشكلاونيون الروس في آليات النص الأدبي وتقنياته، بغية الوصول إلى الخصائص الجوهرية التي تتشكل منها مادة البناء الدبي، لأن الأساس في الأدب ليس ما يقوله، أو الفكرة التي يتضمنها، وإنما الطريقة التي تم بها تقديم الفكرة، فالأفكار مطروحة في الطريق، والذي يجب أن يثير الاهتمام هو الشكل اللغوي الموظف توظيفا خاصا، حيث تكون اللغة هي المادة الأساسية التي يتعامل معها القارئ وفق نظراته الأولوية و إدراكه الشعري، حيث "يعد الإدراك الشعري ضربا من ضروب اختيار الشكل والإحساس به، ويتضح من هذه التصورات ومن مفهوم الأدبية التي صارت ركيزة أساسية للشعرية المعاصرة... قاعدة متينة لنظرية التلقي"².

وكان اهتمامهم أيضا بالأداة الفنية التي تساعد على إدراك الصورة الشعرية، التي بدورها تسهم في خلق إدراك متميز للشيء، أي أنها تخلق رؤيا ولا تقدم معرفة، لأن ما يهم المتلقي ليس ما كان عليه الشيء، وإنما اختيار ما سيكون عليه³. كل هذه الأدوات الفنية ساهمت إلى حد ما في تقريب النص من المتلقي انطلاقا من بنائه الخارجي إلى محتواه الداخلي الذي يتمثل في الإدراك الجمالي للصورة الشعرية. "وما هو مهم في ألمانيا ليس التركيز المكثف على العمل الدبي أو الجذور اللغوية والتشعبات ولكن التحول في نقطة الأفضلية إلى العلاقة بين القارئ-النص بتوسيع مفهوم الشكل، ليشمل الإدراك الجمالي، بتحديد عمل الفن ووسائله بتوجيه الاهتمام إلى إجراءات التفسير ذاتها⁴.

¹ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2007، ص 14.

² روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية القاهرة، ط 1، 2000، ص 48.

³ أحمد يوسف، القراءة النسقية (سلطة البنية و وهم المحاينة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2003، ص 94.

⁴ روبرت هولب، نظرية الاستقبال (مقدمة نقدية)، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، دت، ص 30.

وقد رفض الشكلاينيون كل المقاربات التي كانت سائدة بغض النظر عن طبيعتها الفلسفية أو الاجتماعية أو النفسية... مادامت تنطلق من خارج النص، إذ يقول «بوريس إبخنباوم» في هذا الصدد: "إن الشكلايين في اعتراضهم على المناهج أنكروا ولا يزالون ينكرون، ليس تلك المناهج في حد ذاتها، وإنما الخلط اللامسؤول فيها بين علوم مختلفة... لقد اعتبرنا ولا نزال نعتبر كشرط أساسي، أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن مادة أخرى...."¹.

إن مهمة علم الأب أو الشعرية، عند الشكلايين، تتلخص في تتبع الخصوصيات الأصلية التي تميز الفن الأدبي عن غيره من المجالات الفنية والعلمية التي قد يدخل معها في حوار مفتوح من خلال شبكة من العلاقات، تسعى الدراسة النقدية إلى كشف خيوطها وإبراز مظاهرها التفاعلية، من خلال الدراسة العلمية للأسلوب الأدبي باعتباره عدولا عن الأنماط اللغوية المعتادة، إذ يقول إبخنباوم: "من أجل تدعيم مبدأ النوعية... دون الرجوع إلى علم جمال أدبي، كان من الضروري مقابلة المتوالية الأدبية بمتوالية أخرى من الواقع يتم اختيارها من بين عدد كبير من المتوالات الموجودة نظرا لتداخلها بالمتوالية الأدبية مع قيامها بوظيفة مختلفة"².

ارتبطت الشكلاينية الروسية ارتباطا وثيقا بالشعر المستقبلي الذي كان ينزع منزعا شكلاينيا ورمزيا بامتياز. لذا، فقد كان الهدف هو دراسة الوقائع الأدبية دراسة علمية موضوعية وعينية، بعيدا عن التصورات السيكلوجية والاجتماعية والتاريخية والجمالية والفلسفية والثقافية. ومن ثم، فقد أصبحت النزعة العلمية الموضوعية من أهم المبادئ التي ارتكزت عليها الشكلاينية الروسية لعلمنة الأدب وشكلنته. كما تعد الأدبية مبدأ ثانيا للشكلاينية الروسية، فليس المهم هو مضمون الأدب، بل المهم هو دراسة شكل المضمون بطريقة علمية موضوعية سانكرونية.

ترفض الشكلاينية الروسية النقد التقليدي الذي كان يدرس الأدب بعلوم بعيدة عن الأدب، مثل: علم الجمال، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم الثقافة، والفلسفة... ومن ثم، فهي تستبدله بعلم مستقل للأدب، يدرس خصائص

¹نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلايين الروس، ترجمة عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، ط1، 1982م، ص 10.

²نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلايين الروس، ص 36.

الإبداع وسماته ومكوناته الفنية والجمالية، في ضوء مقارنة شكلانية موضوعية. ومن هذا المنطلق، يدرس الأدبية بمفهوم رومان جاكبسون (R.Jakobson) ، الذي يقول بأن "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما الأدبية (Littérarité) أي: ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً. ومع ذلك، وحتى الآن، فإننا نستطيع أن نشبه مؤرخي الأدب بالشرطة التي تفكر في اعتقال شخص، فتصدر، على سبيل الحظ، كل ما وجدت في حجرته، وحتى الناس الذين يعبرون الطريق القريبة منها. وهكذا، فإن مؤرخي الأدب يأخذون أطرافاً من كل شيء: من الحياة الشخصية، من علم النفس، من السياسة، من الفلسفة. إنهم يركبون جمعا من الأبحاث التقليدية، بدلا من علم أدبي، كما لو كانوا ينسون أن كل موضوع من الموضوعات المذكورة. إنما ينتمي، بالضرورة، إلى علم معين: تاريخ الفلسفة، وتاريخ الثقافة، وعلم النفس، إلخ، وإن هذه الموضوعات يمكن لها بالطبع أن تستعمل الوقائع الأدبية كوقائع ناقصة، ومن الدرجة الثانية"¹.

✓ مدرسة براغ البنوية

لا يمكن إغفال مساهمة هذه المدرسة خاصة في مجال القراءة والتلقي الجمالي للنص الأدبي. ويظهر ذلك جليا في أعمال المنظرين الكبار للمدرسة، أمثال موكاروفسكي. "لقد كانت أعمال موكاروفسكي-أحد أهم منظري مدرسة براغ البنوية- من أكثر المصادر النظرية سيادة في ألمانيا، وخصوصا خلال السنوات الأخيرة من الستينات والسنوات الأولى من العقد السبعين، حيث ظهرت ترجمات ألمانية لعدد كبير من كتاباته، وحيثما كانت تذكر نظرية التلقي أو البنوية في ألمانيا كانت إشارة إلى موكاروفسكي². وهذا راجع بالأساس إلى قرب الطرح المنهجي والنقدي للناقد مع الأهداف العامة التي تدعو إليها نظرية التلقي، حيث "يتضح إحياء موكاروفسكي بنظرية التلقي أكثر ما يتضح عندما يحدد الإطار العام للفن عنده بوصفه نظاما حيويا دالا، ووفقا لهذا المفهوم، يصبح كل عمل فني مفرد ببنيته، ولكنها بنية لها مرجعيات غير مستقلة عن

¹ بوريس إبخانباوم، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 35-36.

² عبد الناصر حسن محمد، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، دط، 1999م، ص 76.

التاريخ، ولكنها تشكل وتتحد من خلال أنساق متعاقبة في الزمن¹. فهو لم يفصل العمل الأدبي بما هو بنية عن النسق التاريخي، بل يرى أنه لا بد من فهم العمل على أنه رسالة، إلى جانب كونه موضوعاً جمالياً، وبهذا يتوجه إلى مثلث هو نتاج العلاقات الاجتماعية، لذلك يصبح العمل الفني يحتل مكاناً في السياق الملائم لفحص الاستجابة الجمالية.

✓ ظواهرية رومان انجاردن (الفينومينولوجيا)

لقد نظر هذا الاتجاه إلى عملية التلقي من خلال العلاقة القائمة بين النص والقارئ، و أكد على دور المتلقي في تحيين المعنى وجعله جزءاً من مكتسباته القبلية والبعدية، "لأن النص عند الظارائين لا يوجد إلا حينما يتحقق أو يصبح راهناً، ولهذا ينبغي تبني وجهة نظر المؤول مرتبطة بنصه هو، وبتدخلاته المحكومة بمكوناته الثقافية والمعرفية الخاصة"².

وتلعب الظاهرية دوراً مهماً في صياغة أهم المفاهيم التي دعا إليها أعلام نظرية التلقي، حيث "دعا نقاء القراءة وجمالية التلقي في منتصف العقد السابع من هذا القرن إلى تفاعل القارئ والنص إعادة لثنائية الذات والموضوع الظاهرية. فقد تأثر رواد هذه النظرية (ولاسيما آيزر و يابوس) بالفكر الظاهراتي من «هوسرل» و«غامير» حتى «هيدجر»، واشتقوا مصطلحاتهم الخاصة ومفاهيمهم مثل (أفق الانتظار) و(المسافة الجمالية) و(فراغات النص) و(الواقع الجمالي)، التي أعانتهم على وضع قواعد لتقبل النصوص وتأويلها"³. وأبرز المفاهيم الظاهرية المؤثرة في نظرية التلقي مفهوم التعالي والقصدية ودورهما في تنمية العلاقة بين الذات المتلقية والبنية النصية. "ويبدو مفهوم التعالي هو النواة المهيمنة في الفكر الظاهراتي، وقصد به «هوسرل» أن المعنى الموضوعي ينشأ بعد أن تكون الظاهرة معنى محضاً في الشعور، أي بعد الارتداد من عالم المحسوسات الخارجية المادية إلى عالم الشعور الداخلي الخالص"⁴. ومعنى هذا أن عملية البحث عن المعنى تكون في العوامل الداخلية

¹ روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ص 71.

² ضياء خضير، ثنائيات مقارنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2004م، ص 15.

³ حاتم الصكر، ترويض النص، دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، إجراءات ومنهجيات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998م، ص 103.

⁴ بشرى موسى الصالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 2001م، ص 34.

للذات الإنسانية، وذلك من أجل تكوين خلاصة شعورية قائمة على الفهم العميق ونابعة من التأمل الدقيق للظواهر المادية الخارجية.

✓ الهرمنوطيقا/التأويلية

الهرمنوطيقا مشتقة من الكلمة اليونانية "Hermeneia" أي فن التأويل¹، وهي تشير إلى الجهود التأويلية التي مارسها الإنسان لتفسير النصوص وفهمها، والبحث عن المعاني المضمرة في باطن النص برده إلى بداياته الأولى ومصادره، وهي الدلالة التي تتفق مع تعريف ابن منظور للتأويل: "التأويل المرجع والمصير، مأخوذ من آل يؤول إلى كذا أي صار إليه"².

ويرجع الفضل في نقل الهرمنوطيقا من الحالة التقليدية اللاهوتية إلى حالة جديدة أكثر فاعلية جعلها حاضرة في كل النصوص، إلى الباحث "فريدريك شلاير ماخر"، واعتبر هذا إيذانا لمرحلة أصبحت فيها الهرمنوطيقا علما له خصوصيته الساعية إلى توفير فهم صحيح لكل قول مهما كان نوعه، وبالتالي "يعود إليه الفضل في أنه نقل المصطلح من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون علما أو فنا، لعملية الفهم وشروطها في تحليل النصوص. وهكذا تباعد "شلاير ماخر" بالتأويلية بشكل نهائي عن أن تكون في خدمة علم خاص، ووصل بها إلى تكون علما بذاتها يؤسس عملية الفهم، وبالتالي عملية التفسير"³. ومن ثم نقل الممارسة التأويلية من وضع الاحتكار الكنيسي اللاهوتي، إلى وضع أدواتي مشاع، عبر الارتقاء بها إلى درجة علم يؤسس لعملية الفهم، في محاولة لإيجاد تاصيل منهجي لعملية تأويل النصوص، عبر الانتقال من وضع التأويل للنصوص بكل تمظهراتها وأنواعها إلى معنى الفهم.

الهرمنوطيقا عند "شلاير ماخر" تشكل مفارقة جديدة للنمط التقليدي السائد، وتتضح هذه المفارقة بملاحظة الدافع نحو تأسيس منهج للفهم. ف «شلاير ماخر» يبدأ بالبحث عن مصدر فن التأويل فيجده في ظاهرة سوء الفهم، من حيث أنها تثير الحاجة إلى الفهم. وتلك الحاجة تتحول إلى فن إذا استطعنا أن ننزود بشروط الفهم"⁴. ما يجعل من الضروري إيجاد منهج تأويل يعصمنا من سوء الفهم، وهذا خلاف النمط التقليدي الذي ينطلق من إمكانية الفهم لكل شيء.

1 نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1998م، ص 5.

2 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 3، مج 11، مادة أول، 1994م، ص 33.

3 نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 5، 2005م، ص 20.

4 نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، ص 44.

أما الكيفية التي يقترحها «شلاير ماخر» للفهم فتعتمد على تحليل الحالة الإبداعية التي ترتبط بالحياة الداخلية والخارجية للمبدع، ما يجعل من الضروري لفهم الإبداع استصحاب كلا الحالتين في عملية الفهم. وهو اعتراف واضح بالذات المبدعة وعدم إهمالها، وهو في الواقع اعتراف بالقصد المستبطن في النص، ومن هنا يكتسب النص تصورا جديدا عند «شلاير ماخر» يصبح فيه تجليا لحياة المبدع. "وإذا كان الأمر كذلك فإن المهم في الممارسة الهرمنوطيقية ليس تفسير المقاطع النصية فحسب، بل وإدراك النص في أصله ومنبعه، وفي بزوغه من الحياة الفردية لمؤلفه"¹.

وتتجاوز وظيفة الهرمنوطيقي حينها تفسير النص لتصل إلى اكتشاف التجربة الحياتية للمبدع، لأن النص ليس مجرد وصف أو تصوير يستمد وجوده من الخارج فحسب، وإنما أيضا مفعم بحياة الآخر عندما يعكس التجربة الداخلية للمبدع، وتكون اللغة وقتها وسيطا لنقل تلك التجربة. ومن هذا البعد نتعرف عن الحالة الرومانسية التي وصفت بها هرمنوطيقا «شلاير ماخر» لأنها تؤكد دور المبدع على حساب الواقع، وتعتبر النص تعبيراً لعالمه الداخلي أو موازيا له.

وتتدرج محاولات «دلثاي فلهلم» البحثية في إطار الجهود الرامية إلى تشييد صرح منهجي للعلوم الإنسانية والاجتماعية مستقل عن المناهج المعتمدة في العلوم الطبيعية. وقد رأى أن المقاربة المنهجية لهذين المجالين العلميين (الطبيعي والإنساني)، ينبغي أن تختلف بينهما نظرا للاختلاف والتباين بين طبيعة كل منهما، "فالفارق بين العلوم الاجتماعية والطبيعية يكمن، عنده، في أن مادة العلوم الاجتماعية، وهي العقول البشرية، مادة معطاة، وليس مشتقة من أي شيء خارجها مثل مادة العلوم الطبيعية التي هي مشتقة من الطبيعة"². وبهذا رفض النظرة الفيزيقية التي نادى بها «إمانويل كانت» في كتابه "نقد العقل الخالص" وشرع عن قصد في كتابة "نقد العقل التاريخي" لكي يضع الأسس الاستمولوجية للدراسات الإنسانية"³، بهدف فك الارتباط المنهجي مع النموذج الميكانيكي القائم على المقاربة السببية والكمية لموضوعاتها المغايرة لموضوع

¹ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 26.

² نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص 24.

³ عادل مصطفى، فهم الفهم (مدخل إلى الهرمنوطيقا)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2007م، ص 118.

العلوم الإنسانية، الذي هو الحياة الإنسانية المركبة من الشعور والمعرفة والإرادة.

ويرى «دلثاي فلهلم» أن المقاربة المنهجية في العلوم الإنسانية يجب أن لا تركز على التفسير، لأن التفسير مقولة مجردة وسكونية وليست من الحياة، بل يجب أن تركز على مقولة الفهم المستمدة من الحياة نفسها، "إن الذات العارفة التي شيدها «لوك» و «هيوم» و «كانت» لا يجري في عروقها دم حقيقي، ذلك أن هؤلاء يضيفون نطاق المعرفة ويقصرونها على ملكة الإدراك بانفصال عن الشعور والإرادة"¹. الفهم عند «دلثاي فلهلم» هو فهم تأويلي، ذلك أنه يشغل على العلامات داخل المجتمع، أي أنه هو سيميولوجيا تتبع المسار التوليدي لإنتاج المعنى، و كيفية التوصل إليه، وذلك من قوله "إننا نسمي فهما، المسار الذي ندرك من خلاله ما هو باطني استنادا إلى علامات خارجية"².

إن «دلثاي فلهلم» يدعو إلى الاشتغال على التجارب الداخلية المتجلية في أشكال التعبير المختلفة التي يعتمدها البشر في تحقيق كينونتهم لفهم الحياة. وأهم الأشكال التعبيرية المعبرة عن تجربة الحياة، هي تلك التي تتخذ من اللغة أداة لها، ذلك أن تجربة المبدع تتجاوز إطار ذاتيتها لتتحول إلى تجربة حياة، كونها تجسدت فيما هو مشترك ومشاع بين الجميع من البشر، و "تعتبر التعبيرات الأدبية، التي تتخذ من اللغة أداة لها، أعظم قدرة من التعبيرات الفنية الأخرى على الإفصاح عن الحياة الداخلية للإنسان"³.

أما هرمنوطيقا «هايدغر مارتن» لا يمكن استيعابها إلا ضمن فلسفته الوجودية، لولا أن تلك الفلسفة قائمة في الأساس على الهرمنوطيقا أو على ماهية الفهم عنده، ما يجعل الأمر أكثر تعقيد. فهل تكمن البداية في معرفة الهرمنوطيقا ومن ثم معرفة فلسفته الوجودية أم العكس؟

هذه الجدلية أوجدها «هايدغر مارتن» عندما أقام فلسفته على أساس الهرمنوطيقا، في الوقت الذي أقام فيه الهرمنوطيقا على فلسفته الوجودية، ما يجعل الجدلية في صورتها الظاهرية أشبه بالدور المنطقي، إلا أن ذلك التناقض لا يتصور إلا في دائرة النسق المعرفي الذي يقوم على الاستنتاجات العقلية. إن اختيار «هايدغر مارتن» المنهج الظاهري لا يحدد فقط مساره المعرفي، في

¹ عادل مصطفى، المرجع نفسه، ص 121-122.

² نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، ص 51.

³ عادل مصطفى، مرجع سابق، ص 124.

مقابل المسار الفلسفي العام. بل يحدد أي نمط من أنماط الفهم والوعي الذي يبحث عنها «هايدغر مارتن»، إنه الفهم والوعي الذي يلامس الحقيقة في ذاتها وليس ذلك الفهم الذي تتوسطه المفاهيم والصور والمقولات الذهنية "مثل هذه الظاهرية هرمنيوطيقية، بمعنى أنها تتضمن أن الفهم لا يقوم على أساس المقولات والوعي الإنسانيين، ولكنه ينبع من تجلي الشيء الذي نواجهه، من الحقيقة التي ندركها"¹.

إن هذه التفرقة المنهجية تؤسس لمفارقة جوهرية في نظرية المعرفة، إذ أن نظرية المعرفة التقليدية تصور الإنسان على أساس كونه ذاتا عارفة تؤسس رابطا مفهوما بينها وبين الموجود الآخر، وهي النقطة التي بدأ منها الجدل بين الذاتي والموضوعي في المعرفة، طالما تصورنا وجود فارق جوهرى بين وجود الإنسان الذاتي و الآخر الموضوعي.

أما في منهج هايدغر لا نتصور تلك الثنائية، لأن الإنسان ليس وجودا منفصلا، وإنما وجود الإنسان وكيونته هي في وجوده مع الآخر، "فكذلك الأمر بالنسبة للوجود الإنساني، إنه يشوه ويزيف عندما يفسر بوصفه ذاتا جوهرية. إن الإنسان ليس بالذات الابستمولوجية(العارفة)، المنعزلة، التي تدرك وجودها أولا، ثم تحاول بعد ذلك البرهنة على وجود العالم(كما فعل ديكارت)، بل إن الإنسان يدرك العالم إدراكا أوليا بخبرته واهتمامه المباشر، فالعالم بهذا المعنى مكون لوجود الإنسان، ونتيجة لذلك قضى «هايدغر» على ثنائية الذات والموضوع التي سادت-بتأثير ديكارت-حتى الوقت الحاضر"².

وعلى الرغم من أن محاولة «هايدغر» في المحافظة على المسافة بين الذات والموضوع، فإننا نجد أنه يذهب في نهاية الأمر إلى الاعتراف بأن الذات والوجود هما نفس الشيء³. و«هايدغر» لا ينكر وجود الآخر و إلا اتهم بالمثالية، وبهذا القدر يحافظ على المسافة بين الإنسان والآخر. ولقد أصبح الإنسان على يد الفلاسفة الوجوديين، يمثل ذلك الكائن البشري الموجود في العالم، وسط الأشياء، ولم يعد مجرد ذات عارفة. فلا بد أن يترتب على ذلك أن يصبح معاشرنا للأشياء وليس عارفا لها. ولهذا نجد «هايدغر» يقول: "إن

¹نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص 32.

²إبراهيم أحمد، إشكالية الوجود والتقنية عند هايدغر، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2006م، ص 82.

³إبراهيم أحمد، إشكالية الوجود والتقنية عند هايدغر، ص 83.

الفيلسوف الحق هو الذي يحب معايشة الأشياء، ويطيل الإقامة بينها، ووسطها، ويستمتع إلى همسها في تعاطف ودي"1.

يقول «هايدغر»: الأنية ليست هي أصغر جزء من الحاضر، إنها اللحظة، وهي تفتح الحاضر أو تصدعه"2، أي أن الإنسان هو الذي يجد ذاته باستمرار، وكلا الأمرين قد يؤسسان للنسبية، وهنا «هايدغر» لا يرى الفردية التي تجعل المعرفة ذاتية و إلا تناقض مع نفسه، فهو لا يمنع من التواصل الوجودي الذي يتجلى عبر اللغة المعبرة عن هذا الوجود، "لعل اللغة كما يعتبرها "هايدغر" من أهم العناصر في الوجود الإنساني، فهي أساسية له، ... اللغة هي أيضا أداة اتصالنا مع العالم ومع الآخرين"3. ولا يكون للاتصال أي مسوغ إذا لم يكن هناك تلاق في المعنى والإدراك والفهم.

2. بين النص والنص الأدبي

تمنح الكتابة للنص معنى؛ فهو نسق من العلامات الدالة المرتبة وفق نظام داخلي مما ينتج سيرورة دلالية. ومن ثم، يعتبر نصا كل خطاب يحيل على ممارسة تدليلية لكونه يؤسس منظومة مرجعية، ويبنى أكوانا دلالية لارتباطه الوثيق بكل مكونات العالم الواقعي، مما يعقد فهم إرسالية النص المكتوب، وفك شفراته أمام القطب الجمالي للنص. ومن هذه الزاوية، يمكن طرح سؤالين مركزيين: ألا يستدعي النص المكتوب قارئاً أو قراء وإشكالية القراءة بكل تشعباتها؟ هل يمكن أن نتحدث عن نص مكتوب واحد أم عن نصوص مكتوبة؟ وما وظيفة كل نص نوعي مكتوب؟ وهل كتب بالكيفية التي تلائم صياغة المقروء؟ وهل ثمة طريقة تلائم كل وظيفة من وظائف المكتوب؟

إن سلطة النص الأدبي، تتجلى أساسا في كونه يقيم علاقة خاصة مع اللغة المعجمية أو القاموسية، فيزيحها من سياقها التداولي الأصلي، ليمنحها بناءا تركيبيا ودلاليا جديدا مستمدا من قاعدة أن الإبداع لعب باللغة، ومن أجل اللغة. وعلى هذا الأساس، تبرز حرية المبدع والحضور المنظم لأدوات الكتابة من خلال استحضر العناصر الجمالية الأساس، من جهة، واختيار قواعد وظيفية لنقل الأشياء والموجودات والاستيهامات من جهة أخرى. وبذلك، يتحدد المتخيل الذي يتخذ شكلا محددًا. وعلى هذا الأساس، فالمبدع الحقيقي ليس لديه ما يقوله،

1 إبراهيم أحمد، المرجع السابق، ص 76.

2 إبراهيم أحمد، المرجع نفسه، ص 78.

3 إبراهيم أحمد، نفسه، ص 86.

إنه لا يمتلك في نهاية المطاف سوى طريقة للقول. ومن ثم، تغدو مجمل محمولات الخطاب الأدبي مجرد أحلام، وكوابيس، وأوهام، مجرد كائنات زئبقية تابعة "لأنا" المبدع من خلال إعادة اكتشاف قيمة الخلق الأسطوري. وعلى ضوء ذلك، تجسد الجملة المكتوبة نوعا من النفي لامتدادات المعيش ولو عبر الديمومة التي تشاركه في الجوهر، مما يفتح مجالات خصبة أمام حركة الكتابة وفعل الخيال: أي أن دينامكية نقل الوقائع، من منظور تخيلي جمالي، هو نوع من التفكيك وإعادة التركيب لتلك الوقائع من خلال جدلية الهدم والبناء: هدم ما هو كائن وبناء ما ينبغي أن يكون. وبذلك، فإن المبدع يعقد رغم إرغامات اللغة وإيحاءاتها- صلة غرابية مع الواقع في أفق دفع القارئ إلى المشاركة الفاعلة والمنتجة في لعبة الكتابة التي لا تتحقق إلا من خلال تعرية بطلان الإيهام المرجعي، والتدليل على استيهامات المبدع وأيديولوجيته في كل مكان. لذلك فإن "الكتابة رهان على إنشاء عالم قد تحضر في ثناياه صورة الكاتب، ولكنها تنتهي في المحدود"¹. ومن هنا، تتشكل لعبة الصراعات الجدلية والحوارية لرهانات الكتابة، في حين أن "رهان الكاتب هو التفاعل مع الواقع بتحولاته والارتواء من معين المتخيل"². وبالتالي، تتحدد "بياضات الذاكرة وفجواتها أو مناطق لاتحد يدها لأنها تعمل على تحريك الذكريات الراكدة لتبتكر الحياة من جديد"³.

وبهذه الابتكارات اللغوية التي يحدثها النص الأدبي، ينشغل المتلقي عما قبله وعما بعده، مما يكسب النص بعدا ترميزيا أو مغلقا يحتاج من الجهد، والوسع، والقدرة، على مساءلة صمت المعنى الكامن في النص، باعتباره نصا زئبقيا منفلتا يصعب القبض على دلالاته الهاربة بكل سهولة. بمعنى أن الخطاب الأدبي، هو بالأساس، خطاب لساني إيحائي ومكثف يخرق القواعد المعيارية السيمانتيقية، فيشغل القارئ بذاته قبل أن يشغله برسالته. وجدير ذكره، أن كل إنتاج نصي عليه أن يقيم في تصور كل متلق صورة دلالية جامعة بين الدال والمدلول، مما يحقق الفهم والإدراك شريطة تحديد مرجعية خاصة، وذلك بمعرفة حقيقة الأشياء والبنية العميقة للخطاب. ورغم تعدد مستويات النص الأدبي، فإن حقائقه تظل معلقة، ومؤجلة في انتظار قارئ خبير متمرس

¹ محمد عز الدين التازي، الكاتب الخفي والكتابة المقنعة (دراسة أدبية ونقدية)، سلسلة شراع المغرب، ع72، 1998، ص3.

² محمد عز الدين التازي، مرجع سابق، ص4.

³ محمد عز الدين التازي، نفسه، ص7.

بجماليات النصوص التخيلية من أجل فك شفراته ودلالاته، علما أن القيمة المرجعية للخطاب تبقى حاسمة في تحديد وتوجيه مساراته وسياقاته. ومع ذلك، فليس من شأن النص أن يصرح دائما بكل مرجعيته، وان كان يقدم إichاءات وإشارات دالة مساعدة على ذلك. وفي هذا المقام، تطرح علاقة المعنى بالمرجع، وبالسياق، وباللغة، وبالواقع، وبالتناص (تداخل النصوص، وتدمير المرجعيات، فتطفو على مستوى الخطاب إشكالية العلاقة بين الواقعية النصية والواقعية الرمزية).

3. النص الأدبي بين التلقي والتأويل

يثير سؤال التأويل إشكالات نظرية ومنهجية. وفي هذا السياق، طرح يابوس الأسئلة التالية: أين تبدأ استقلالية التأويل الأدبي؟ كيف كان يعمل؟ وكيف يعمل اليوم للكشف عن الخصائص الجمالية للنصوص؟ ويضيف في نفس السياق: "لم تهتم الشاعرية اللسانية، أو السيميائية، التي أتت بعد ذلك، ولا النظريات الأشد حداثة في الكتابة، واللعبة النصية، والتناص لم تهتم كلها بالمضامين التأويلية للمنهجيات الوصفية الحديثة اللهم إلا في حال اتخذت جهازا موقفا مضادا للتأويلية باسم الموضوعية العلمية الشكلانية"¹.

وإذا كان «هايدغر» قد قسم التأويل الأدبي إلى ثلاث مراحل (الفهم، التفسير، والتطبيق)، فإنه قد طبق هذه المراحل الثلاث في مجالي التأويل اللاهوتي والقانوني بشكل يوحد بينها. ومن هنا، يمكننا "في الواقع تحديد الإسهام المعرفي للأنظمة التأويلية خلال تاريخها انطلاقا من كيفية تعرفها على وحدة اللحظات الثلاث، وتطبيقها في ممارستها العلمية، أو من طريقة نسيانها لهذه الوحدة بفضل تفضيل لحظة من هذه اللحظات في أبحاثها على حساب اللحظات الأخرى"². الإشارة ذاتها ذكرتها نظرية الأدب بحيث يتطلب التأويل "أن يبحث المؤول في مقاربتة الذاتية، معترفا بالأفق المحدود لوضعيته التاريخية، ويؤسس هذا التأويل هيرمينوطيقية تفتح حوارا بين الحاضر والماضي، وتتدخل التأويل الجديد في السلسلة التاريخية لتجسد المعنى"³.

¹GAUSS HR, POUR UNE HERMENEUTIQUE LITTERAIRE, TRADUIT DE L ALLEMOND PAR MAURHCE JACOB ED GALLIMARD, 1988, P 54.

²GAUSS, HR ;IBID, P 55.

³هانز روبرت يابوس، نظرية التلقي والتواصل الأدبي، ترجمة سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 38، 1986م، ص 107.

إن تحقيق هذه الرهانات رهين، بالاستناد إلى مفهوم الأفق أو المعيار الجمالي، بوصفه يضبط تأويل نص معين من خلال التأثير الذي يحدثه في القارئ، والذي يدخل معه في لعبة السؤال والجواب. بالإضافة إلى التحولات التي يخضع لها أفق التوقع تاريخيا من خلال دراسة سانكرونية، أو دياكرونية لتاريخ الأدب الجديد: أي تاريخ تلقي الأدب. لهذا، فلا يمكن تصور تأويل علمي، عند يابوس، دون دراسة الأفق بوصفه: "حدا تاريخيا، وفي الوقت ذاته شرطا لكل تجربة محتملة، ومن حيث هو عنصر مكون للمعنى في الفعل البشري والفهم الأولي للنظام"¹.

وعليه، فمواجهة مشاكل نظرية مع النص، لا تتأتى إلا من خلال نافذة القراءة باعتبارها نشاطا ذهنيا وإبداعيا يقوم به القارئ الذي يحول النص من نطاق الكمون إلى نطاق التحقق. يقول ج سارتر: "إن الفعل الإبداعي لحظة غير مكتملة في العمل الأدبي، لأن عملية الكتابة تفترض عملية القراءة كتلازم جدلي، وهذان الفعلان المرتبطان هما: المؤلف والقارئ"². وهذا معناه أن الكتابة و القراءة وجهان لعملة واحدة، أو فعلا متلازمان، فليس هناك من معطى لفصل أحدهما عن الآخر، فالأثر لا يخرج للوجود إلا موصولا بعملية القراءة مادام النص نداء وما على القراءة إلا أن تلبي هذا النداء.

والأدهى من ذلك، فإن التعاقب التاريخي للقراءات للعمل الأدبي الواحد تولد إنتاجية نصية، بفعل اندماج أفق النص بأفاق القراء، فيتم تجاوز منطوق النص إلى المسكوت عنه أو اللامقول باعتباره خزاناً أو منجماً ولوداً من الدلالات. ومن ثم، يتمثل دور القارئ في تنشيط الحوار الخلاق مع النص من أجل تطوير فن القراءة وفن الكتابة معا. والقارئ الإيجابي، أو القارئ الفعال، مشروط طبعا بشروط ثقافية ومعرفية تسمح له بتحريك آليات النص وتجاوز إكراهاته.

فالكاتب والقارئ شريكان أساسيان واعيان بآليات مهنة صناعة الإبداع، ومنهجية النفاذ إلى عوالمه الداخلية. فإذا كان الكاتب قد شكل أو كون النص، فإن القارئ هو الذي يؤوله، ويمنحه معنى بوصفه حصيلة اندماج ظرفي بين النص و القارئ في لحظة تاريخية ونفسية محددة. فالمعول عليه في استقبال النص هو استحسان السامع، أو الانصراف عنه، وعلى الأديب أن يحرص على

¹ هانز روبرت يابوس، علم التأويل الأدبي حدوده ومهامه، ترجمة د. بسام بركة، العرب والفكر العالمي، عدد 3، 1988م، ص59.

² رشيد بنحدو، العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، المجلد 23، الكويت، 1994م، ص474.

إرضاء ذوق الجمهور إذا أراد أن يكون أدبيا أصيلا. فالقراءة، إذن، تنشيط لإنتاجية النص، وقدح لزناده الإبداعي، وتحقيق لتداو ليته من خلال انخراط القارئ في فعل القراءة، وملامسته لمستويات النص اللغوية والأسلوبية وتجاوز اكرهاته البنائية، وفك سننه ومعرفة سياقاته.

4. علاقة القارئ بالنص الإبداعي

لقد اتجهت البحوث النقدية المعاصرة إلى خلق معادلة أدبية جديدة تمثلت في علاقة القارئ بالنص الإبداعي، هذا القارئ الذي لم يكن له دور فعال في النظريات الأدبية التقليدية، فكان التركيز معظمه منصبا على النص كأساس لكل التحليلات الأدبية، فالدلالة والجمالية موجودة بالنص، وما على القارئ إلا أن يضع يده على هذه الأمور، ومن لم يستطع فإن ثقافته النقدية غير صحيحة أو غير مؤهلة... بل توصف قراءته النقدية بالخاطئة.

ومن الباحثين الذين كان لهم باع كبير الباحث الألماني « فولفغانغ إيزر » في كتابه "فعل القراءة، نظرية الأثر الجمالي"، وكان دفاعه عن القارئ بطريقة جادة وتحليلات فائقة، حيث جعله شريكا أساسيا في العملية الأدبية باعتبار القراءة شرط رئيسي وضروري في تفسير وتأويل النص. وقد لخص «فولفغانغ إيزر» رؤيته للقارئ والنص فيما يلي: "نستطيع القول أن العمل الأدبي له قطبين: القطب الفني يتعلق بالنص الذي أنتجه الكاتب، بينما القطب الجمالي يتعلق بالتحقق على مستوى القارئ... إن موقع العمل الأدبي هو النقطة التي يلتقي فيها النص والقارئ"¹، ويؤكد «فولفغانغ إيزر» أن القراءة هي التي عبرها يحدث التفاعل الأساسي لكل عملية أدبية، إذ يقول: "إنه أثناء القراءة يحدث التفاعل الأساسي لكل عمل أدبي بين بنائه والمرسل إليه"².

ينطلق «فولفغانغ إيزر» من أن المعنى ليس موجودا في النص وليس سابقا على وجود القارئ له، وهذا التحقيق هو الذي يقوم بإخراج المعنى إلى حالة التجسيد، فالمعنى يبني بمشاركة القارئ بغض النظر عن موقفه أكان بالقبول أو الرفض، وبداية وجود المعنى هي نقطة الالتقاء بين النص والقارئ ويسميتها

¹WOLFGANG ISER : L'acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique, traduit de l'allemand, par evelyne SZNYCER , éditeur pierre M. Bruxelles .P 48.

²WOLFGANG ISER: L'acte de lecture . P 48.

أيزر بالموقع الافتراضي¹. و في نفس السياق يرى الباحث «حميد لحمداني» في تحليله لهذه العلاقة التفاعلية، أن «فولفغانغ إيزر» ينطلق من أن النص لا يقوم على مبدأ الامتلاك بالمعاني، وإنما من مبدأ الفراغ لأن النص إذا كان ممثلاً بالمعاني فما على القارئ أن يسلم بذلك. ولهذا فالتواصل هو أن يتعامل القارئ مع النص بفكره ورصيده المعرفي، ويقوم بملاً الفراغات الكثيرة². ومن المصطلحات التي تعرض لها «فولفغانغ إيزر» «سجل النص»، وهذا السجل تكون فيه الإحالة إلى النصوص السابقة، تاريخية واجتماعية وثقافية، ويتم في هذه الحالة انتخاب عناصر دلالية معينة على حساب عناصر أخرى تتعرض للإقصاء، وهكذا يتضح "أن علاقة النص بمرجعياته تتأسس عبر صيرورة معقدة، وأن المعنى لا يتقدم جاهزاً، وإنما يتحدد من خلال تلك الصيرورة التي تلعب فيها القراءة دوراً أساسياً"³.

5. القارئ النموذجي عند "أمبرتو إيكو"

يعد الباحث الإيطالي "أمبرتو إيكو" من الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تأسيس نظرية التلقي، ومعالجته لمفهوم القراءة تختلف عن الباحث الألماني فولفغانغ إيزر، حيث بقي يعتقد "أن النص الأدبي له قوته وسلطته في تحديد دور القارئ الذي يمتلك رد فعل تجاه البنية والمحتوى"⁴.

يؤكد "أمبرتو إيكو" في كتابه "القارئ في الحكاية" على أن القارئ الذي يريده ليس قارئاً على طريقة "إيزر" يكتشف معانيه من تفاعله مع النص، وإنما هو "قارئ جيد نموذجي لديه كفاءات ومهارات في تعامله مع النص تتمثل في الكفاءات الموسوعية، الكفاءات المعجمية والأسلوبية والكفاءات اللغوية، كما أن المؤلف ينبغي له أن يمتلك مجموعة من الكفاءات تتماشى مع كفاءات القارئ، وحينئذ يحدث ما يسميه التعاضد أو التعاون بين القارئ النموذجي والنص"⁵، لأن القارئ إذا لم يكن يمتلك هذه الكفاءات المعرفية والموسوعية والأسلوبية

¹ عبد العزيز طليمان، فعل القراءة: بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات فولفغانغ إيزر (نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات)، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، منشورات كلية الآداب، الرباط، ص 153.

² حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب. ط 1، 2003، ص 70.

³ عبد العزيز طليمان، المرجع السابق، ص 155.

⁴ حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، ص 72.

⁵ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي-المغرب، ط 1، 1996، ص 68.

سوف لن يكون في مستوى معرفة ما يقصده الكاتب من خلال النص، لذلك يرى إيكو: "أن القارئ المصاب بقصور موسوعي يجد نفسه على قاب قوسين أو أدنى مما يعوزه"¹.

والنص لا يصرح بكل شيء، ولا يكشف عن المضمون للقارئ، ولهذا "أمبرتو إيكو" يستخدم عبارة "ما لا يقال"، ويقصد بها "فكرة مهمة لم يقلها النص وعلى القارئ أن يقوم بتفعيل المضمون، وهنا يقوم القارئ بحركات تعاضدية لمعرفة هذا المضمون، ثم يستخدم مفهوم ملاً الفراغات، وهو المفهوم نفسه عند فولفغانغ إيزر، يقول: "فالنص إن هو إلا نسيج فضاءات بيضاء وفرجات ينبغي ملؤها، ومن يبته يتكهن بأنها فرجات سوف تملأ، فيتركها بيضاء"². فالقارئ المتمكن هو الذي يمتلك القدرة على محو البياض والفراغات التي تركها الكاتب من أجل بعث الروح في النص واستنطاق معانيه ودلالات أنساقه. وفي علاقة المؤلف بالقارئ النموذجي، يرى أمبرتو إيكو "أن المؤلف يصوغ فرضية حول القارئ النموذجي من خلال عبارات استراتيجية، و بالمقابل فإن القارئ ينبغي له أن يرسم فرضية المؤلف مستخرجا ذلك من خلال النص بصورة مضبوطة"³.

ويستخدم إيكو مصطلح "قراءة ما وراء النص"، فهناك القراءة الأولى للنص ثم هناك القراءة الثانية، وهذه الأخيرة هي التي تشكل قراءة ما وراء النص والقارئ فيها نموذجي ناقد يستطيع الوصول إلى حقيقة الحكاية، بينما القراءة الأولى لا تصل إلى حقيقة الحكاية⁴. وقد قام إيكو بتحليل قصة تحمل عنوان "مأساة باريسية حقا" إذ يقول في هذا الصدد: "والحال أن قصة "مأساة ... كانت قد كتبت لتقرأ مرتين (أقله)، فإذا ما اقتضت القراءة الأولى قارئاً بسيطاً، عمدت القراءة الثانية إلى اقتضاء قارئ ناقد يكون قادراً على تأويل فشل المبادرة التي قام بها الأول"⁵.

وهكذا يصنف إيكو القراءة وينظر إليها نظرة مثالية، فالقارئ العادي عنده لا يستطيع إدراك ما وراء النص، وبالتالي فهو ليس قارئاً صحيحاً. فعلى كل القراء، حسب أمبرتو إيكو، أن يكونوا نموذجيين، ذوي كفاءات عالية جداً، بل

1 أمبرتو إيكو، المرجع السابق، ص 68.

2 أمبرتو إيكو، المرجع نفسه، ص 63.

3 أمبرتو إيكو، المرجع نفسه، ص 77.

4 أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، ص 259.

5 أمبرتو إيكو، المرجع السابق، ص 259.

نقادا محترفين، وهذا ما لا يتماشى مع المعطيات الواقعية، فهناك مستويات للقراءة، ويستطيع كل قارئ إدراك نص الحكاية انطلاقا من قدراته الخاصة، ومعارفه الشخصية، أما القول بأن النص الحكائي يقدم حكاية تتضمن حكاية أخرى خفية (حكاية في حكاية) فهذا لا ينطبق على كافة الحكايات والقصص، فهو نص يحتوي على أسطورة وآخر على رمز، وآخر على أفكار فلسفية، فلسنا أمام نص واحد فقط في الإبداع، فهناك أشكال أدبية لا حصر لها في سرد الحكايات .

ويختلف أمبرتو إيكو عن «فولفغانغ إيزر» في تحديد المعنى، حيث يرى إيكو وجود المعنى القبلي الذي له علاقة بمقصدية المتكلم، وهذا المعنى القبلي هو منطلق لجميع القراءات الممكنة، كما أنه يقبل بتأويل النص، شريطة ألا يتعارض هذا التأويل مع القراءات النصية، ولكنه في كل الحالات لا يقبل إلا القراءات النقدية المختصة¹.

6. مستويات القراءة عند حميد لحمداني

حاول الباحث حميد لحمداني تحليل مفهوم القراءة أو التلقي على ضوء نظرية الجشطالت في تمييزها للمعرفة، حيث يرى أن نظرية الجشطالت ميزت بين نوعين من المعرفة²:

-المعرفة الحدسية.

- المعرفة الذهنية أو الفكرية.

ففي المعرفة الحدسية مثلا: "عندما يحاول شخص ما فهم لوحة تشكيلية، إنه يحيط نظريا بالمنطقة التي يشتمل عليها إطار اللوحة ويدرك المكونات المختلفة لهذه اللوحة من أشكال وألوان وعلاقات مختلفة، هذه المكونات تمارس تأثيراتها الإدراكية على بعضها البعض بطريقة تجعل المتلقي يستقبل الشكل الكلي باعتباره نتيجة للتفاعل بين مكونات اللوحة المختلفة، ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة للأعمال الإبداعية الأخرى كالموسيقى والرواية والقصة القصيرة والمسرح والشعر،.... أما المعرفة الذهنية أو الفكرية فهي تعمل على تفنيت العمل الإبداعي إلى عناصر جزئية.... وهناك معرفة ثالثة غايتها ليست المتعة

¹حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص 32.

²حميد لحمداني، المرجع السابق، ص 214

والتذوق الجمالي بل هي معرفة ذات إيديولوجي أو عقائدي،... أما المعرفة الرابعة فهي إبستمولوجية، تأمل في الكائن الممكن"¹.
وقد حاول حميد لحمداني تصنيف هذه المعارف مع ما يناسبها من مستويات القراءة:²

مستويات المعرفة	مستويات القراءة	الوظيفة
المعرفة الحدسية	قراءة حدسية	التذوق، المتعة
المعرفة الإيديولوجية	قراءة إيديولوجية	المنفعة
المعرفة الذهنية أو الفكرية	قراءة معرفية	التحليل
المعرفة الابستمولوجية	قراءة منهجية	التأمل، المقارنة وإدراك الأبعاد

الملفت للاهتمام أن هذه المستويات يمكنها أن تلتقي فيما بينها، كما يمكن أن تهيمن إحداها في تلقي النص الأدبي، ولكنها لا تكاد نفرق هنا بين القراءة المعرفية والقراءة الإيديولوجية، لأن الإيديولوجيا قائمة على الأفكار والفلسفات. وإذا قلنا القراءة المنهجية هل هذا يعني أن القراءة الإيديولوجية ليست منهجية؟ إذن ثمة تشابك بين هذه المستويات ويصعب الفصل بينها، وتكاد تؤدي إلى مفهوم واحد. ومن خلال ملاحظتنا لمختلف القراءات النقدية للنصوص الإبداعية أن منها من يعتمد على الشكل ومنها من يعتمد على المضمون، على الرغم من وجود التشابك الكبير بين الشكل والمضمون، فالشكل يعتمد مثلا على بنية الزمن وشخصية الراوي ولغة السرد، تقنيات السرد وغيرها، أما المضمون فيكون مثلا: قراءة أنثروبولوجية للنص... أو قراءة فلسفية أو قراءة تراثية... أو قراءة تاريخية... وهكذا... أي توجد مجالات كبيرة في معالجة النص الإبداعي، ويمكن للقارئ الناقد أن يعتمد قراءتين في الوقت نفسه.

7. المبدع المتلقي لعناصر الأسطورة

✓ رواية بيجماليون لتوفيق الحكيم كنموذج

ثمة علاقة حميمية بين الإبداع والأسطورة منذ القديم، فقد كان الشاعر أو الفنان يستلهم الأساطير، واستمرت هذه العلاقة عبر عصور مختلفة إلى يومنا

¹حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص 215.

²حميد لحمداني، المرجع السابق، ص 216.

هذا، وهذا معناه أن الأسطورة لم ترتبط فقط بحياة الإنسان القديمة، وإنما ظلت عنصراً أساسياً في الحياة الإنسانية في كل زمان. وتعرف الأسطورة على أساس: "أنها شكل خاص من القص تم ربطه بتاريخ الآلهة اليونانية القديم. وعلى الرغم من ذلك فإن الأساطير ليست هي تاريخ الآلهة، وإنما هي تاريخ لشخصيات بطولية تتميز عن القصة الخرافية أو القصة الملحمية، بل هي تاريخ القدامى ولكنها تختلف عن النصوص التاريخية وقصص الحيوانات"¹. والأسطورة ضرورة بالنسبة للإنسان المعاصر فهي زاد للحلم وعنصر في تنظيم العلاقات بين الأشخاص، فوظيفتها عالمية، ولا يمكن أبداً أن نتصور أن حضارتنا بإمكانها الاستغناء عن الأسطورة أو ما يشابهها.

وإذا كانت القصيدة الشعرية ارتبطت بالعناصر الأسطورية فإن الرواية العربية والقصة القصيرة.... استفادت هي الأخرى من هذه العناصر، وذلك بغية تطعيم النص بأبعاد جمالية تزيد من متعة القارئ أو المتلقي، ولا تجعله حبيس الأفكار والصور الواقعية، لكن توظيف الأسطورة في الإبداع لا يتأتى إلا عن طريق تلقي المبدع سواء للنصوص الأسطورية في حد ذاتها، أو تلقيه للنصوص الإبداعية التي وظفت العناصر الأسطورية، ويحدث أحياناً أن يسقط المبدع أشياء أسطورية على شخصية معينة.

يقول توفيق الحكيم في مقدمة الرواية، بيجماليون، أن هذه "القصة تقوم على الأسطورة الإغريقية ويعود تعرفه على هذه الأسطورة من خلال تواجده بمتحف اللوفر حيث رأى لوحة زيتية لبيجماليون وجالاليا للفنان "جان روكس"، كما أنه شاهد مسرحية بيجماليون في شريط سينمائي "لبرنادشو"².

فمنذ البداية يصرح توفيق الحكيم أن مصادر التلقي في كتابه هذه الرواية

هي:

-القصة الأسطورية القديمة.

-اللوحة الزيتية.

-مسرحية بيجماليون برناردشو.

¹ عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981م، ص 224.

²توفيق الحكيم، بيجماليون، دار الكتاب اللبناني، 1974م، ص9.

ومما لاشك أن فيه أن توفيق الحكيم عندما اطلع على هذه المصادر لجمالين تفاعل معها وتأثر بها، بل قدم جديدا من خلال إبراز الصراع بين روعة الفن وواقع الحياة، وفي النهاية ينتصر للفن.

وملخص الأسطورة هو أن "جمالين نحات"، كان يتميز بكرهيته للنساء ولذا ألزم نفسه أن يعيش أعزبا، وبالتالي خصص معظم أوقاته لفن النحت. فقد نحت أعمالا فنية عديدة، من بينها تمثال امرأة تدعى "قالاتيا" كانت في غاية الروعة والجمال، ومن ثم فقد نشأت علاقة عشق وغرام بين النحات جمالين و"قالاتيا"، مما جعله يتوسل للآلهة أن تبعث فيها الروح. وفي النهاية تستجيب الآلهة "أفروديت" ويتحول تمثال "قالاتيا" إلى امرأة حقيقية وتصبح زوجة لجمالين.

أما ملخص رواية "جمالين" عند توفيق الحكيم فيتمثل في أنه صنع تمثالا جميلا لقالاتيا، وبعد أن تقدم بطلب إلى الآلهة أن تنفخ فيها الروح، يتم ذلك مع تطور الأحداث فتنشأ الخصومة بين "جمالين" و"جالاتيا".

جمالين: لا تبكي يا جالاتيا ... ألم أقل لك إني لست ناقما عليك أنت...!

جالاتيا: بل إنك لناقم علي...

جمالين: نفترق؟!...

جالاتيا: منذ الآن!...

وكانت من بين أسباب هذه الخصومة أنه كان ينفر منها حين يراها تحمل المكنسة لمزاولة أعمال البيت، فأصبحت تمثل المرأة العادية، وهي بعيدة كل بعد عن المرأة التي تمثل الجمال الرائع في التمثال، فكانت النهاية هي دعاء جمالين للآلهة أن تعيد "جالاتيا" إلى أصلها الأول أي التمثال. وكانت صرخة جمالين واضحة حين قال:

"أيتها الآلهة! ... لقد أخذتم مني فني، وأعطيتموني زوجة"².

وإذا كانت أسطورة "جمالين" مصدرا للتلقي والتأثير عند توفيق الحكيم فإنها لم تحمل المضمون نفسه، فالأسطورة بالمفهوم الإغريقي أن "جمالين" حرم نفسه من الزواج وقرر أن يعيش أعزبا مدى الحياة مما جعل الآلهة تعوضه بامرأة أخرى تتحول من التمثال إلى الواقع، أي أن الأسطورة قائمة على فكرة التعويض، فقد كان "ينظر إلى موهبة الشاعر على أنها تعويض، فألهة الفنون

¹توفيق الحكيم، جمالين، ص125-124.

²توفيق الحكيم، جمالين، ص120.

: أخذت البصر من عيني "ديمودوكوس Demodocos" لكنها أعطته موهبة الغناء اللطيفة"¹. بينما نجد توفيق الحكيم يعطيها بعدا آخر وهو "معارضة الفن للحياة، إثارة الفن على الواقع"². فجالاتيا التمثال أعظم من جالاتيا الزوجة، وبهذه الطريقة فإنه، انطلاقا من تلقي مضمون الأسطورة الإغريقية، استطاع الكاتب أن يبدع أفكارا جديدة ومضمونا جديدا مغايرا للمضمون الأول.

إن تلقي الأسطورة أسهم في إبداع موضوع أدبي جديد وفكرة جديدة وهي أن الفن أجمل من الواقع. وهنا يؤدي التلقي وظيفته التجديد في الإبداع. فالباحث "زكي العشماوي" قام بدراسة مقارنة بين "برنارد شو" و "توفيق الحكيم" حيث شاهد هذا الأخير فيلما سينمائيا عرض في القاهرة عن جمالين مأخوذا عن مسرحية برنارد شو، وليس من شك في أن "توفيق الحكيم" قد رجع قبل أن يؤلف مسرحيته إلى الموضوع القديم دارسا ومتعمقا إلى روح الأسطورة، كما أنه لا شك قرأ مسرحية "برنارد شو" وتفاعل معها وهذا ما نسميه بالتمثل والتأثر"³.

خاتمة

إن الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي، هو التفاعل بين بنيته النصية ومنتقيه. فالنص ذاته لا يقدم إلا مظاهر خطافية يمكن من خلالها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص بينما يحدث الإنتاج الفعلي من فعل التحقق الذي ينجزه القارئ.

فجمالية التفاعل لا تظهر إلا من خلال مرور القارئ عبر مختلف وجهات النظر التي يقدمها النص، ويربط الآراء والنماذج المختلفة بعضها ببعض. هذا الفعل الحركي الذي يقوم به القارئ يجعل العمل الأدبي يتحرك، كما يجعل نفسه حركة كذلك. لأن الموقع الفعلي للعمل يقع بين النص والقارئ، إذ أن من الواضح أن تحقيق التفاعل هو نتيجة للتفاعل بين الاثنين.

¹رينيه وبيك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، 1981، ص 83.

²محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي، ص 204.

³محمد زكي العشماوي، نفسه، ص 203.

ببليوغرافيا

- ✓ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 3، مج 11، مادة أول، 1994.
- ✓ حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب. ط 1، 2003.
- ✓ محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي (دراسة مقارنة)، دار الفكر العربي القاهرة، 1996.
- ✓ عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة، الجزائر، دط، 2002.
- ✓ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2007.
- ✓ أحمد يوسف، القراءة النسقية (سلطة البنية ووهم المحاينة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2003.
- ✓ توفيق الحكيم، بجماليون، دار الكتاب اللبناني، 1974.
- ✓ حاتم الصكر، ترويض النص، دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، إجراءات ومنهجيات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998.
- ✓ روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية القاهرة، ط 1، 2000.
- ✓ عبد الناصر حسن محمد، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، دط، 1999.
- ✓ ضياء خضير، ثنائيات مقارنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2004.
- ✓ نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 5، 2005.
- ✓ عادل مصطفى، فهم الفهم (مدخل إلى الهرمنيوطيقا)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2007.
- ✓ إبراهيم أحمد، إشكالية الوجود والتقنية عند هايدغر، الدار العربية للعلوم، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2006.

- ✓ محمد عز الدين التازي، الكاتب الخفي والكتابة المقنعة (دراسة أدبية ونقدية)، سلسلة شراع المغرب، ع72، 1998.
- ✓ روبرت هولب، نظرية الاستقبال (مقدمة نقدية)، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، بدون تاريخ.
- ✓ نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلايين الروس، ترجمة عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، ط1، 1982.
- ✓ بشرى موسى الصالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2001.
- ✓ نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- ✓ رشيد بنحدو، العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، المجلد 23، الكويت، 1994.
- ✓ عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981.
- ✓ محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار المعرفة الجامعية، 1993.
- ✓ هانز روبرت يابوس، نظرية التلقي و التواصل الأدبي، ترجمة سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 38، 1986.
- ✓ هانز روبرت يابوس، علم التأويل الأدبي حدوده ومهامه، ترجمة بسام بركة، العرب والفكر العالمي، عدد 3، 1988.
- ✓ عبد العزيز طليعات، فعل القراءة: بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات ولفغانغ إيذر (نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات) سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24. منشورات كلية الآداب - الرباط - بدون تاريخ.
- ✓ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي-المغرب، ط1، 1996.
- ✓ رينيه ويلك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1981.

✓ GAUSS HR, POUR UNE HERMENEUTIQUE LITTERAIRE, TRADUIT DE L ALLEMOND PAR MAURHCE JACOB ED GALLIMARD, 1988.

✓ WOLFGANG ISER, L'acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique, traduit de l'allemand, par evelyne SZNYCER , éditeur pierre M. Bruxelles .

سيمياءيات المسرح

المختار العسري

تمهيد

يستمد علم السيمياءيات مبادئه من عدة حقول معرفية، كاللغويات والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأنثروبولوجيا...؛ هذا الثراء أعطاهها قيمة مضافة، وجعلها منفتحة على مجالات معرفية متعددة، وبذلك أضحت السيمياءيات المنهج التحليلي الأكثر قدرة على التكيف مع روافد العلوم المختلفة، وتحليل الخطابات التواصلية، سواء الاخبارية أو التوعوية أو التجارية أو الفنية أو الفرجوية ... لقد تجاوز الزحف السيميائي المضامين الثابتة كالصور والخطابات المسجلة (الإشهار والسينما ...) الى دراسة خطابات أكثر تعقيدا كالعروض المسرحية، ويتجلى هذا التعقيد في كون الفرجة المسرحية خطابا مباشرا ومركبا، يقوم بمهمة الإرسال و التلقي في الآن معاً، ذلك أن "الفرجة أنية تزول فور انجازها"¹، غير قابلة للإعادة. وقد عبر "رولان بارث" عن هذا التعقيد قائلاً: "ما المسرح؟ إنه عبارة عن آلة سيبرنيطيقية، فعندما تكون متوقفة تكون محجوبة، لكن بمجرد إزاحة الستار عنها، تبعث لك العديد من الرسائل، وما يميز هذه الرسائل هو أنها تكون متزامنة، وإن كان إيقاعها متبايناً"².

إن محاولة البحث في المنهج السيميائي في النقد المسرحي يفرض علينا طرح العديد من الأسئلة من قبيل: ماذا نقصد بسيمياءيات المسرح؟ و ما الأسس النظرية لسيمياءيات المسرح؟

1 - سيمياءيات المسرح: المفهوم والسيرورة

قبل الحديث عن مفهوم سيمياءيات المسرح، لا بد لنا من العودة للبحث عن طبيعة التلاقح الحاصل بين السيمياءيات باعتبارها منهجا نقديا والمسرح باعتباره فنا و إبداعا وفرجة، ومن أجل ذلك سنقف عند معجم المسرح ل "باتريس بافيس" والمعجم الموسوعي للمسرح ل "ميشيل كورفان" والمعجم المسرحي ل "ماري إلياس" و "حنان قصاب".

¹خالد أمين، الفرجة بين المسرح والأنثروبولوجيا، ضمن كتاب جماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، سلسلة أعمال الندوات، رقم8، مطبعة أطوبريس، طنجة، 2002، ص27.

²R.Barthes: Litterature et signification-in Essais critiques-points-Seuil-pasris-1964, p258

يعرف "معجم المسرح" ل "باتريس بافيس" سيميائيات المسرح، أنها "منهج ينصب على تحليل النص أو العرض، ويهتم بالتنظيم الشكلي للنص أو الفرجة، وكذا بالتنظيم الداخلي للأنساق الدالة التي يتألف منها النص والفرجة، كما يعنى بدينامية سيرورة الدلالة، و بإنتاج المعنى بواسطة تدخل الممارسين والجمهور"¹. أما "مشيل فوكو M. Foucault" فيرى في كتابه " Les mots et les choses " أن سيميائيات المسرح "مجموعة المعارف والتقنيات التي تسمح بتعرف العلامات، وبتحديد ما يجعل منها علامات، ومعرفة العلاقات القائمة بينها، وقواعد تأليفها"². إن السيميائيات تهتم بنمط إنتاج المعنى عبر العملية المسرحية التي تمتح من قراءة المخرج للنص وصولا الى تأويل المتفرج.

أما "ميشيل كورفان Michel Corvin" فقد اعتبر سيميائيات المسرح في معجمه المعجم الموسوعي للمسرح "جزءا من السيميائيات العامة أو علم العلامات، ومنهجا في تحليل النصوص والعرض، حريصا على نظامها الشكلي ودينامية وسيرورة بناء المعنى، آخذا بعين الاعتبار نظامها الصريح في حركيتها وموقعها المتطور لمعانيها وهي المعاني التي تكون بواسطة شراكة جامعة بين صانعي الفرجة والمتفرجين، وذلك هو مسعى المتمرسين المسرحيين والجمهور"³. وهكذا فالمنهج السيميائي أسلوب يطبق و يطل المسرح بصورة منتظمة وتطبيقية، والسيميائيات المسرحية منهج نسقي للتحليل المسرحي.

لقد ارتبط ظهور سيميائيات المسرح ب"حلقة براغ" اللسانية في سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين، خاصة بعد الأعمال المتلاحقة ل "زيخ Zich"، و"استستيقا الدراما" 1931، و"موكاروفزكي Mukarovsky" 1934 و "فلتروتسكي Veltrusky" 1940. واستمرت الجهودات وكانت الرغبة في دراسة المسرح باعتباره لغة متكاملة ومستقلة استقلالاً تاماً، من الأسباب الحقيقية لظهور سيمياء المسرح.

¹patrice pavis, Dictionnaire du théâtre. Ed Sociales, paris,1980, p350.

²Michel Foucault, Les mots et les choses: une archéologie des sciences humaines, Paris, Gallimard, coll. «Bibliothèque des sciences humaines», 1966. p44.

³Michel Corvin. Dictionnaire encyclopédique de theatre. Paris, Bordas, 1991.p767

لقد تحققت سيميائيات المسرح مع "مدرسة براغ" سنة 1970 مع "طاديوز كاوزان T.kowzan" في "أدب وفرجة في علاقتهما الموضوعاتية والجمالية"، أما في فرنسا فقد تم اقتراح التطبيقات الأولى من قبيل "ميشيل كورفان"، و"باتريس بافيس" في "مشاكل السيمولوجيا المسرحية" سنة 1974، و"اندري هيلبو Helbo Andre" في "سيمولوجيا العرض المسرحي" سنة 1975، و"آن أوبرسفيد Anne Ubersfeld" في "قراءة المسرح" سنة 1977، ثم "إيفيلين إيرتيل Evelyne Ertel" في "عناصر من أجل سيمولوجيا المسرح".

أما في العالم العربي فقد استفادت سيميائيات المسرح من الدراسات الغربية التي تعتبر رائدة في هذا المجال، وهو ما تجلى في ما جاءت به الباحثتان "ماري إلياس" و"حنان قصاب حسن" في معجمهما المسرحي، حيث ميزت الباحثتان في حديثهما عن تطور السيميائيات المسرحية بين ثلاث مراحل أساسية:

- **المرحلة الأولى:** وتبدأ من ثلاثينيات القرن العشرين، حيث وضعت الأسس الأولى لسيميائيات المسرح من خلال "حلقة براغ" التي اعتمدت على الدراسات اللغوية ل"سوسير"، وعلى الدراسات البنوية، وعلى الدراسات التي قام بها "الشكلانيون الروس" حول "الشعرية Poetique". وقد ركزت دراسات هذه المرحلة على تحديد ماهية العلامة ووضعها في المسرح، مع اعتبار كل ما في المسرح من علامة تتجاوز الوظيفة النفعية لتكتسب وظيفة رمزية ودلالية، كما اعتبرت العلامة وحدة أولية في تركيب المعنى، ودرست ديناميكيتها وتحولها، وعلاقتها بالأعراف المسرحية من خلال دراسة تطبيقية كتليل العلامات في المسرحين الشعبي والشرقي.

- **المرحلة الثانية:** تميزت هذه المرحلة بتعرف الغرب الأوربي وأمريكا على أحداث "حلقة براغ" و"الشكلانيين الروس" في الستينيات والسبعينات، وظهرت أبحاث رائدة من قبيل محاضرة البولوني "طاديوز كاوزان T.Kawzan" في "العلامة في المسرح" سنة 1980، وتتجلى أهمية هذه المرحلة في كونها تحدد وتصوغ ماهية السيميائيات المسرحية، ومحاولة تطبيقها فعليا على النص والعرض، كما تتحدد ملامح هذه المرحلة من خلال المواضيع التي عالجتها؛ كإشكالية العلاقة بين النص والعرض، وطبيعة التواصل في المسرح.

- **المرحلة الثالثة:** في هذه المرحلة تم تخطي السيميائيات الكلاسيكية؛ لأنها ظلت منغلقة على مادة البحث و لم تربطه بسياق إنتاجه، وتميزت هذه المرحلة

باستفادة سيميائيات المسرح من تطور المناهج العلمية الأخرى، وتوجه البحث نحو التلاقح الثقافي والمثاقفة Interculturalite ونحو التداخل النصي أو التناص Intertextualite. وتم في هذه المرحلة أيضا دراسة الخطاب والكلام عندما يكون بمثابة الفعل "Actes de langage" وخصوصيتهما في المسرح، ومحاولة تخطي نماذج البحث المستقاة من نظرية السرد المطبقة سابقا. ورغم النشاط الكثيف الذي عرفه بداية القرن العشرين، بعد اقتراح السيميائيات باعتبارها علما شاملا للعلامات من قبل "سوسير" و"بورس"، ورغم ارتفاع أسهم المشروع السيميائي في السنوات الأخيرة خاصة في حقل الدراسات الأدبية، إلا أن المسرح كان أقل اهتماما مقارنة بالشعر والرواية، رغم غناه التواصلية.

2- سيميائيات المسرح: الأسس النظرية

ترتبط سيميائيات المسرح تاريخيا، بثلاثينيات القرن العشرين مع مجموعة من المفكرين الغربيين، إذ ظهرت الشذرات الأولى لسيميائيات المسرح مع "مدرسة براغ" التي تعتبر من سبابة لدراسة المسرح "دراسة سيميائية نسقية مؤسسة على خلفية نظرية وإبستمولوجية، وانصب اهتمام روادها على فنون مختلفة من ضمنها المسرح"¹. وكانت الأشكال المسرحية التي اشتغلوا عليها متنوعة، شملت المسرح الشعبي في الغرب، وكذا بعض المسارح الشرقية كالمسرح الصيني والمسرح الياباني وغيرهما، محاولين رصد كل الأسئلة ومناطق الاهتمام "بكل ما يقدم الى المتفرج في إطار المسرح هو علامة، كما أدركت ذلك "مدرسة براغ" التي لم يسبقها أحد إلى ذلك"².

لقد عرفت بداية التحليل السيميائي للمسرح، تناول الخطاب منفصلا حيث النص الدرامي ونص العرض، وبدأت هذه الممارسة مع الرواد الأوائل الذين تناولوا الظاهرة المسرحية من زاوية النص الدرامي ومن الزاوية الشكلية، وهكذا أصبح العرض المسرحي مهما في التحليل، وهو ما طرح إشكالية؛ تتجلى في العلاقة بين النص و العرض، واستجلاء الصلات والوشائج بينهما، ومن هنا نستنتج "أن البحث السيميوطيقي الذي قامت به "حلقة براغ"، ركز على تعريف العلامات بدلا من محاولة تصنيفها في إطار العرض، كما أن المداخل السيميوطيقيه لمقاربة المسرح في النصف الثاني من القرن العشرين، قد ركزت

¹ عمر الرويضي، سيميائيات المسرح، كلمات لنشر والطبع والتوزيع، 2016، ص64

² عمر الرويضي، المرجع السابق، ص64

على تنظيم النتائج التي تم التوصل إليها"¹، ومن بين ما يحسب لـ "مدرسة بلاغ" اللغوية، كونها نظرت الى اللغة من جانبها الوظيفي.

وإذا ما عدنا للحوار الذي أجرته مجلة "تيل كيل" مع الناقد "رولان بارت" سنة 1963، والذي أعيد نشره سنة 1964، تحت عنوان "الأدب والدلالة Essais Critiques"، يقول "ما المسرح؟ إنه عبارة عن آلة سيبرنيطيقية، فعندما تكون متوقفة تكون محجوبة، لكن بمجرد إزاحة الستار عنها تبعث لك العديد من الرسائل، وما يميز هذه الرسائل هو أنها تكون متزامنة، وإن كان إيقاعها متباينا، فالمتفرج يتلقى في كل لحظة من لحظات العرض ست معلومات أو سبعا(صادرة عن الديكور، والملابس، والإضاءة، ومكان الممثلين وحركاتهم وإيماءاتهم وكلامهم)، غير أن بعض هذه المصادر الإعلامية يظل مكانه (وهذه حال الديكور)، بينما تتغير المصادر الأخرى(شأن الكلام والحركات...) فنكون إزاء بوليفونية حقيقية"². ويقول أيضا: "في علم العلامات نجد أننا سنتعامل مع أنظمة مختلطة تتكون من العديد من المواد(الصوت، والصورة، و الأشياء والكتابة) وربما من الأفضل ان نجمع هذه العلامات تحت مفهوم واحد هو العلامة النمطية اللغوية والتخطيطية والأيقونية والإشارية، فهذه كلها كلمات نمطية"³.

فالمتلقي في العرض المسرحي، يكون بصدد التعبير الدرامي الصوتي، والتعبير الدرامي المرئي، اللذان يتوحدان لتحقيق الأثر لدى المتلقي مستفيدين من اللغة كوسيط بين الصوت والفكرة كما يقول "رولان بارت" بالإضافة إلى كونهما وسيطا بين الحركة أو الصورة والفكر، فالمسرح "يتشكل من مجموعة من الصور الصوتية والمرئية المترابطة ترابطا دراميا سواء في الكوميديا أو في التراجيديا أو في غيرهما من أشكال التعبير الدرامي. في المسرح تندرج كلها تحت مفهوم العلامات المسرحية..."⁴.

إن فهم العالم يرجع الى طريقة واحدة وتتمثل في قراءة العلامات، المطروحة في الطريق، لذلك نحن نقرأ الذين نراهم في الشارع، حسب ما يرتدونه من

¹ عمر الروبضي، سيميائيات المسرح، ص65

²R.Barthes : Littérature et signification,1963 , p258/259

³R.Barthes : Elements of Semiology. 1964

<http://www.marxists.org/reference>

⁴هاني أبو الحسن سلام، سيميولوجيا المسرح بين النص والعرض، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2006، ص41.

اللباس؛ الشعر الأشعث، والملابس المهلهلة، والأحذية غير الملائمة تدل على البؤس. أما القبعة، والبذلة، والحذاء المنسجم، والمظلة تدل الوقار والمكانة المرموقة. ورغم كوننا قد نتورط في هكذا قراءات، لمعرفتنا بشفرات الملابس وتأثرنا بذلك، وهو ما يتناقض مع المسرح الذي يشير كل ما فيه إلى معنى فني محدد مسبقاً.

ويعتبر "رولان بارث" من المتحمسين للتصور السوسيري، رغم التعديلات والإضافات التي قام بها، إذ يقول في هذا الصدد عن العرض المسرحي: "أنه فعل سيميانتكي (علاماتي، سيميائي) مركزاً إلى أقصى حد، يستخدم كأداة للتواصل، دلالاته تفضي بطريقة تكاد تكون منتظمة دائماً إلى بعض المضامين، لذا كان المسرح فن الشفرة والاصطلاح أكثر من الفنون الأخرى، واعتماده على الشفرة هو أحد معطياته الأساسية"¹.

إن الحديث عن سيميائيات المسرح، يرتبط بالباحث الفرنسي تاديوز كاوزان T.Kowzan الذي رسم تاريخ سيميائيات المسرح كرونولوجياً في خمس مراحل، من خلال مقالته الشهيرة "ثلاثة وعشرون قرناً أو اثنتان وعشرون سنة؟" *vingt-trois siècle ou vingt-deux ans?* وهو المقال الذي ترجم إلى عدة لغات، وقد ترجمه الباحث المغربي "محمد التهامي العماري" إلى العربية ونشره إلى جانب مقالات أخرى ذات طابع سيميائي في كتابه "حقول سيميائية".

- **المرحلة الأولى:** وسميت هذه المرحلة بما قبل سيميائيات المسرح. وتمتد من "أفلاطون" و"أرسطو" مروا ب"القديس أوغسطين" و"الرواقيين" وصولاً إلى الفيلسوف الإغريقي "أمونيوس هيرماي".

- **المرحلة الثانية:** كانت متزامنة مع القرنين السابع عشر والثامن عشر، وعرفت ظهور موجة من الأبحاث المتعلقة بالإيماء المصاحب لخطاب "لغة الجسد"، وأشار في هذه المرحلة إلى بعض الأسماء التي بصمت في سيميائيات المرحلة، من قبيل "جيوفاني بونيفاسو Ginovanni Bonifaccio" في كتابه "فن الإيماء" سنة 1616، والقس "مشال دوبير Michel se Pure" وغيرهما، وسميت هذه المرحلة بمرحلة التشكيل الجنيني لسيميائيات المسرح.

- **المحطة الثالثة:** سمى "كاوزان" هذه المرحلة؛ بمرحلة السيميولوجيا والمسرح، واقتربت في تقسيم "كاوزان" بنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

¹ عمر الروبضي، سيميائيات المسرح، ص 66

العشرين، وكتاب "دروس في اللسانيات العامة" للسويسري "فرديناند دي سويسير F.De Saussure"، وتصورات "شارل ساندرس بورس CH.S.Peirce".

- **المحطة الرابعة:** هذه أهم مرحلة بالنسبة إلى "طاديوز كاوزان"، وبدأت مع "حلقة براغ"، و"رولان بارث" في ثلاثينيات القرن العشرين، ويرى أن حقل العلامة في مختلف مظاهر الفن المسرحي، لم يزدهر إلا في الثلاثينيات مع منظري "حلقة براغ".

- **المحطة الخامسة:** وتتمثل في سنوات السبعينات و الثمانينات من القرن العشرين، وشكلت هذه المرحلة بالنسبة إليه منعطفًا هامًا في تاريخ سيميائيات المسرح، اذ تضاعفت الكتب والمقالات في أوروبا والعالم. وانتقل "كاوزان" بعد ذلك للحديث عن الخطاب المسرحي و مكوناته، وحدد ثلاثة عشر نسفا علاماتيا يعمل في العرض المسرحي وهي: "الكلمات وتغيير نغم الصوت وتعبير الوجه والإيماءة وحركة الجسد والماكياج وزى الرأس والملابس واللوازم والديكور والإضاءة والموسيقى والمؤثرات الصوتية"¹.

نستنتج من خلال السرد الكرونولوجي الذي قام به "كاوزان" للظاهرة العلاماتية المرتبطة بالمسرح، في علاقتها بعنوان المقالة أن ما كتب خلال الاثنتين وعشرين سنة الأخيرة من صفحات، من أعمال أصلية، تعادل أضعاف ما كتب طوال ثلاثة وعشرين قرنا.

بالإضافة إلى "كاوزان" يعد "كبير إيلام K.Elam" واحدا من الذين فرضوا أنفسهم من خلال ما قدمه لسيميائيات المسرح من خلال كتابه "سيمياء المسرح والدراما"، حيث تحدث فيه عن سيمياء المسرح من زاويتين: زاوية النص وزاوية العرض. وتطرق لإشكالية التواصل في المسرح من زاوية المتلقي، حيث يشير إلى أن المتلقي يعقد اتفاقا يمنح بموجبه الممثل نسبة مرتفعة من النطق (الكلام)، ويملك المتلقي حق الانسحاب لحظة اكتشافه بأن الممثل يسيء استعمال المبادرة الموكلة إليه. وفي نفس الوقت يرى أن لرد فعل المتلقي تأثير كبير على العرض نفسه وفي تلقيه له، فاتصال المتلقي بالمؤدي يمكن أن يؤثر في غياب أي تأثير آخر، في درجة التزام الممثل بعمله.

¹ أمبرتو أيكو، السيمياء وفلسفة اللغة، ترجمة محمد التهامي العماري ومحمد أودادا، تقديم سعيد بركراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2008، 1، ص203

إن تركيز "إيلام" على التواصل المسرحي في كتابه كان واضحا، لأن أهمية التواصل والتلقي في المسرح عنده بلغت إلى حد القول بأن العلاقة بين عالم الواقع وعالم المسرح مشروطة بمدى قدرة المتلقي على الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الاحتمال، كما يرى أن لكل إشارة نظامها ووظيفتها الخاصة بها، وعلى المتفرج أن يحولها بعد ذلك إلى دلالات تتجمع وتتراكم حول هدف واحد، ويرى أن الترادف يعمل في النص أو في العرض على جميع الإشارات المسرحية في نظام مسرحي يجانس أو يقارب بين الشفرات المسرحية والشيفرة الحضارية ويوحد بينهما¹)، وبالتالي ف "الشيفرة في المسرح هي ما يعكس كل نظام مسرحي من نظم ومواقف حضارية، وذلك ينسحب على النص المسرحي البنيوي وفق الاتجاه البنيوي الماركسي الذي يهتم بالأنساق الحضارية والتاريخية والاجتماعية"¹.

وعن الخطاب المسرحي يرى "إيلام" أنه من المستحيل التحدث عن رسالة مسرحية مفردة، بل عن رسائل متعددة تستخدم في آن واحد من أجل إنشائها قنوات، أو ضروب كثيرة من ضروب استعمال قناة في الاتصال تجمع في تركيب جمالي، أو إدراكي ويمكن للمتلقي أن يفسر هذا المركب من الرسائل على أنه نص موحد بما يتفق و الشفرات المسرحية والدرامية التي في حوزته، ويمكنه أن يقوم أيضا بإرسال الإشارات صوب المؤدين (الضحك والتصفيق والهمهمة...) على طول قنوات بصرية وسمعية، والتي يمكن تفسيرها من طرف كل من المؤدي والمتلقي باعتبارها تعبيراً عداًئياً أو ما شابه ذلك.

لقد تتبع "إيلام" العلامات المسرحية، وكان اشتغاله واضحا، من خلال تتبع مسار العلامة المسرحية من النص الدرامي إلى حدود العرض المسرحي، إذ يرى أن واقعية النص والعرض تنعكس من خلال الإطار الزمني "الآن" والمكاني "هنا" والإطار الحوارية. كما يرى أن عالم المسرح: عالم متمائل مع عالما وغير متمائل معه في آن واحد؛ والمتلقي يدرك ذلك جيدا².

وحاول "إيلام" توضيح كلامه حول أهمية التواصل في المسرح، ويؤكد أن العلاقة بين الخشبة والمتلقي شبيهة بالرسالة اللغوية التي تتم بين كل من متكلم ومستمع، و هو الطرح الذي ستفنده فيما بعد نظرية التغريب، ورفضه أيضا

¹ عمر الرويضي، سيميائيات المسرح، ص 68-69

² ألفريد فرج، دليل المتفرج الذكي في المسرح، سلسلة المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1966، ص 37

اللساني الفرنسي "جورج مونان G.Mounin" وذلك في مقالته الشهيرة "التواصل المسرحي" سنة 1969، حيث نفى فيها صفة التواصل عن المسرح، بحجة أن المتلقي فيه لا يمكن أن يصبح مرسلا، حيث يستخدم شفرات المرسل الأول نفسها. وبالتالي فالإبلاغ فيه أحادي الاتجاه، مما يجعل ادوار المشاركين ثابتة، فكل ما يمكن الحديث عنه حسب "مونان" هو "الإثارة"، أي مجموعة من المثيرات الصادرة عن الخشبة تتولد عنها استجابات لدى الجمهور¹. أما "آن أوبرسفيلد A.Ubersfeld" فقد عالجت المسرح من زاوية سيميائية، ويتجلى ذلك في دراستين أساسيتين وهما: "قراءة المسرح"²، و"مدرسة المتفرج"³ وتطرقت فيهما بالدراسة والتفصيل لكل ما يتعلق بالعلامة المسرحية. إن المتأمل في كتاب "قراءة المسرح" يجد دون كبير عناء أن الكاتبة تضع بين يدي القارئ بعض الأدوات التي تسمح ببيان الروابط التي تربط بين الممارسة النصية والممارسة الركحية، وقد تطرقت "أوبرسفيلد" لفعل القراءة، وتقصده به إبراز مختلف أشكال تحليل العرض والعلاقة بينه وبين النص، حيث ترى أن دور السيميائيات هو تفتيت الخطاب، وأبرزت العلاقة القائمة بين النص الدرامي والعرض المسرحي، حيث تتجلى مكانة المسرح في هذه الثنائية، وبذلك يبدو المسرح حسب الناقدة؛ "أكثر من أي فن آخر" ممارسة اجتماعية، وهي ممارسة لا تنتفي فيها علاقة المسرح بالعملية الإنتاجية، أي بالصراع بين الطبقات⁴.

وترى "أوبرسفيلد" أن العرض المسرحي يعبر عن النص الأدبي ويترجمه، لهذا لا يمكن الفصل بين النص والعرض لأن ذلك قد يقود الى الالتباس، لذلك فمهمة المخرج هي ترجمة النص بلغة أخرى، و أن يضل مخلصا للنص أمينا عليه، بينما يبقى المضمون مماثلا للشكل عند المرور من علامات النص الى علامات العرض"، فمجموع العلامات البصرية والمسموعة والموسيقية التي يخلقها المخرج ومصمم الديكور والموسيقيون والممثلون تشكل معنى ما (أو نخبة من المعاني) التي تتخطى النص في مجمله⁵.

¹محمد التهامي العماري، سيميائيات المسرح، ص275

²A.Ubersfeld: Lire le Theatre .Edition Sociales.Coll.Essentiel-Paris1977.

³A.Ubersfeld: L'école du spectateur.ed.belin-paris.1996.

⁴A.Ubersfeld: Lire le Theatre . op cit. p14.

⁵A.Ubersfeld: Lire le Theatre .p14.

تقول أوبرسفيلد: "من الأكيد أن على السيميائيات أن تهتم بمجموع الخطاب المسرحي (...). بيد أن رفض التمييز بين النص والعرض من شأنه أن يقود إلى كل أشكال الخلط، لأن تحليلهما لا يتوسل بالأدوات المفهومية نفسها. وهو خلط ذو أوجه عدة، وله ضلع في المواقف التبسيطية التي تختزل الواقعة المسرحية"¹، وتقصد بالمواقف التبسيطية "تلك التي تعتبر العرض مجرد ترجمة للنص، بكل ما تقتضيه الترجمة من تناظر بين المكونين، وتدحض هذا الرأي، وتفتتح النظر إلى كل من النص والعرض باعتبارهما مجموعتين متميزتين ومتكاملتين ومتقاطعتين"²، كما تعتبر أن العرض يتضمن نصين اثنين: نص المؤلف (النص الدرامي) ونص صانعي الفرجة (المخرج والسينوغراف،...)، وبذلك تصبح العلاقة بين النصين علاقة تضمن واحتواء لا علاقة تقاطع.

وفي الفصل الثاني من كتابها، تطرقت "أوبرسفيلد" إلى النموذج الفاعلي في المسرح وكيفية الانتقال من الفاعل إلى الشخصية، حيث تعتبر أن السبيل إلى التحليل السيميائي هو تحديد "الوحدات" في مجال المسرح "غير أنه من الصعب بشكل خاص استيعاب هذه الوحدات التي قد لا تكون مطابقة لبعضها وفقا لمنظور النص أو العرض"³.

أما في الفصل الثالث، فسأطت الضوء على الشخصية، هذا المفهوم (الشخصية النصية- الشخصية العرضية) في علاقتها بالنص وبالعرض مفهوم لا تستطيع سيميائيات المسرح في الوقت الحالي ان تحيط به، حتى وإن لم نعتبره "مادة" (شخصا، روحا، خلقا، فردا، متفردا)، أو مكانا هندسي من البنيات المتفرقة، ذو خاصية جدلية "وسطية"، "إننا لا نرى خلف الشخصية حقيقة ما تسمح ببناء خطاب أو خطاب واصف ما، وإنما نقطة التقاء عدد من الوظائف المستقلة نسبيا"⁴.

أما في الفصل الأخير من هذا الكتاب تطرقت الكاتبة إلى مكونات الفضاء المسرحي، حيث ترى ان الخاصية الأولى التي يتميز بها النص الدرامي هي "استخدام شخصيات يمثلها ممثلون، ووجود فضاء تحيا فيه هذه الكائنات الحية، واعتبرت الممارسة المسرحية هي العناصر التي تسمح ببناء المكان المسرحي

¹A.Ubersfeld: Lire le Theatre .p15.

²عمر الروبضي، سيميائيات المسرح، ص72-73

³ A.Ubersfeld : op cit .p59.

⁴A.Ubersfeld: Lire le Theatre .p131

والتي تستقي من الإرشادات المسرحية، مثل: إشارات الأماكن وأسماء الشخصيات والإشارات الخاصة بالإيماءات والحركات...¹. ثم رصدت العلامات المكانية في المسرح بشقيه الطبيعية والاصطناعية، وهكذا " يصبح الفضاء المسرحي أيقونة لفضاء اجتماعي ثقافي ما، ومجموعة من العلامات المشكلة جماليا مثل التصوير التجريدي"².

خلاصة لما سبق ، نستنتج أن كل الاقتراحات حاولت تعريف سيميائية المسرح بأنها تدرس مختلف العلامات الموجودة في العرض المسرحي، وأدى اهتمام السيميائيات بالمسرح إلى تشعب الدراسات، حتى صار هناك فيضاً آخر من النظريات السيميائية التي تطرقت للمسرح، لكن يبقى هدفها الرئيس هو النظر في الدلالة وإبراز علاقة العمل المسرحي بالعالم وكيفية إنتاج المعنى، مع مراعاة النسق الدرامي الذي يبدأ بقراءة النص من لدن المخرج وينتهي بتأويل العرض من طرف المتلقي/الجمهور، الذي يعد واحداً من العناصر الأساسية للرسالة المسرحية.

¹A.Ubersfeld: op cit.p14 1.

²A.Ubersfeld: op cit.p150 .

المراجع المعتمدة

- ✓ خالد أمين، الفرجة بين المسرح والأنثربولوجيا، ضمن كتاب جماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، سلسلة أعمال الندوات، رقم8، مطبعة أطوبريس، طنجة، 2002، ص27.
- ✓ عمر الرويضي، سيميائيات المسرح، كلمات لنشر والطبع والتوزيع، 2016، ص64
- ✓ هاني أبو الحسن سلام، سيميولوجيا المسرح بين النص والعرض، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2006، ص41.
- ✓ أمبرتو أيكو، السيمياء وفلسفة اللغة، ترجمة محمد التهامي العماري ومحمد أودادا، تقديم سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2008، ص1، 203
- ✓ ألفريد فرج، دليل المتفرج الذكي في المسرح، سلسلة المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1966، ص37
- ✓ A.Ubersfeld: Lire le Theatre .Edition Sociales.Coll.Essentiel-Paris1977.
- ✓ A.Ubersfeld: L'école du spectateur.ed.belin-paris.1996.
- ✓ R.Barthes: Litterature et signification-in Essais critiques-points-Seuil-pasris-1964.
- ✓ Patrice pavis, Dictionnaire du théâtre. Ed Sociales, paris,1980.
- ✓ Michel Foucault, *Les mots et les choses: une archéologie des sciences humaines*, Paris, Gallimard, coll. «Bibliothèque des sciences humaines», 1966.
- ✓ Michel Corvin. Dictionnaire encyclopédique de theatre, Paris, Bordas, 1991.

البنية والرمز في الخطاب الدبلوماسي المخزني من خلال الأرشيف الهولندي بلاهاي

عبد الغني العمراني

سأحاول من خلال هذه الصفحات تقديم نبذة مركزة عن البنية النصية للوثيقة المخزنية الدبلوماسية آخذا نموذجا لمراسلات المخزن مع ممثلي الأراضي المنخفضة، مبرزاً في الوقت ذاته أشكال حضور البعد الرمزي بين ثناياها. فالوثيقة الدبلوماسية المخزنية أو بالأحرى الرسالة السلطانية إلى هولندا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تندرج ضمن ما يصطلح عليه بالرسالة الديوانية أو الرسالة الإنشائية التي تتعلق بالنثر الرسمي، وقد اتسمت بمستوى أدبي رفيع تجسد في صور الاستعارة، وفي المهارة اللغوية، من استعمال لأسلوب السجع والمقابلة، مما يدل على إحاطة كاتبها بقواعد اللغة العربية، وتمكنهم من علومها وأساليبها البلاغية، ويكثر استعمال ذلك خصوصاً عند الديباجة والتحلية، اللتين تتضمنان مصطلحات تحمل معاني العظمة، والإكبار، والتقدير، نمثل لذلك برسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندا، بتاريخ 27 صفر 1326هـ/1908م فمما جاء فيها قوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إلى المُحِبِّ الودود الموسوم من التدبير والسياسة بكل وصفٍ محمودٍ، الساعي في مساعي الخير والصالح، على بساط كمال الائتلاف في حسن الاستصلاح، جناب عظيم دولة هلندة الفخيمة السائدة المقدار، الرّاسية قواعد مجدها على رجاحة العقل وكمالها في جميع الأنظار، حماكم الله وأبقى دوحة دولتكم المكرّمة يانعة الأفنان بوجودكم. أما بعد، حمد الله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد»¹

ولم تخل الرسالة المخزنية من بعض المصطلحات الأجنبية أو من الألفاظ التي يندر تداولها في اللغة العربية المعاصرة، أو من بعض الكلمات التي يصعب على غير المغاربة فهمها كالعامية المغربية على وجه التحديد، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ففي رسالة بعث بها النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أغوستُ فريسِينِطُ

¹ من رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندا، بتاريخ 27 صفر عام 1326هـ/1908م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.03، وزارة الشؤون الخارجية 1871-1918، رقم 27.

سنة 1854م ورد فيها ما يلي: «لأنك رَجُولٌ مَلِيحٌ.... ونحن توحَّشناك¹ كثير، نطلب الله يلاقينا معك عن قريب في ساعة سعيدة»².

ويمكن الإشارة أيضاً إلى ما ورد في رسالته إلى القنصل نفسه سنة 1855م حينما قرر هذا الأخير مغادرة المغرب في اتجاه بلاده لطول إقامته في الخدمة القنصلية إذ خاطبه قائلاً: «لأنه من يكون مثلك خصَّه الله بالعقل...، فلا يسخَى³ أحدٌ بفراقه»⁴، وإلى ما ورد في رسالة القائد أحمد بن عبد المالك السعدي إلى نائب دولة البرازيل سنة 1898م قوله «الباشدور متاعنا» التي تعني سفيرنا⁵. ونقرأ في مرسوم السلطان مولاي عبد العزيز حول إحداث ضريبة الترتيب وكيفية تنظيمها وإجرائها قوله: «وعلى كل رأس من البقر نصف ريال، وعلى الضرائب⁶ منها ذكوراً وإناثاً للرأس رُبع ريال»⁷.

وقد تميز الخطاب المخزني في كثير من الأحيان بإيجاز كبير وبأسلوب مغربي، غير مزخرف بالصور البلاغية، يبدأ ببرتكول الافتتاح المتعارف عليه إسلامياً وهي البسملة، والطابع السلطاني، ثم موضوع المراسلة، وينتهي بخاتمة تكون عبارة عن تاريخ الرسالة، وندل على ذلك برسالة جوابية للسلطان مولاي عبد الرحمن إلى القنصل الدانماركي كرسطن سن سنة 1835م التي يخبره فيها باستلام رسالته التي تتضمن الإخبار بوفاة ملك الدانمارك واستخلاف نجله الذي أبدى رغبته في الإبقاء على المهادنة والمصالحة بين الدولتين، وبأن السلطان المغربي بدوره معه على نفس العلاقات التي كانت مع والده، فيما يلي نصها:

«الحمد لله وحده»

¹ تعبير عامي يقصد به اشتقنا إليك في اللسان العربي الفصيح

² من رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسطُ فُريسينطُ، 17 ذو الحجة 1270هـ/1854م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 32.

³ لا يسخَى تعبير عامي يقصد به في اللسان العربي الفصيح لا يمل

⁴ من رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسطُ فُريسينطُ، بتاريخ 12 رمضان 1271هـ/1855م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 32.

⁵ رسالة من القائد أحمد بن عبد المالك السعدي إلى نائب دولة البرازيل بالعرائش، 15 ربيع الأول 1316هـ/1898م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 15.

⁶ الضرائب، جمع ضروبة، تعبير عامي يُقصد به البقرة البكر التي لم تلد بعد.

⁷ مرسوم السلطان مولاي عبد العزيز حول إحداث ضريبة الترتيب وكيفية تنظيمها وإجرائها، غير مؤرخ. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

(الطابع السلطاني)

الخدِيم الناصح كرسطن سن، قونص جنس دينمارك ونائب جنس النبريال. أما بعدُ، فقد وافى حضرتنا العلية بالله كتابك مُخبراً بوفاة عظيم جنس دينمارك واستخلاف ولده مكانه، وأنه على ما كان عليه والده معنا من المهادنة والمصالحة والمعونة فنحن معه على ذلك إن شاء الله، والسلام. في 13 المحرم الحرام فاتح عام 1251»¹

وقد تضمن الخطاب المخزني بين ثناياه رموزاً مختلفة، وظَّفها السلاطين لأجل إظهار سلطتهم وهيبتهم سواء مع الرعية أو في علاقتهم مع الدبلوماسيين الهولنديين. فالرمزية شكل من أشكال تمظهر السلطة، وهي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها²، ومن بين مظاهرها على سبيل المثال؛ تنظيم المخزن بين الفنة والأخرى لعدد من الحملات التأديبية ضد القبائل التي احترفت أعمال اللصوصية في شمال غرب المغرب، حسبما يبدو من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطرّيس إلى القنصل العام البارون فريدريش فون منتسينغن، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/18 يناير 1903م، يخبره فيها بـ«ما صدر من أهل مداشر الفحص من الزيغ والانحراف والفساد وقلة المروءة، وبما وقع من العزم على تربيتهم وإعمال المُتَعَيِّن في حقهم»³. والأمر نفسه حدث مع قبيلة زناتة التي وجها إليها السلطان نفسه سنة 1906م قوة عسكرية للحد من تفاقم الوضع الأمني بها حيث صدر «الأمر الشريف... لكبير المحلة الحوزية مولاي الأمين بأن يُعَلِّمَ القناصل بالدار البيضاء على يد نائب عاملها بما عزم عليه من إجراء التربية على قبيلة زناتة بعد أجل قدره شهر كامل من تاريخ الإعلام»⁴.

¹رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى قنصل الدنمارك بطنجة يُوْهان أرناط كريسترسن، 13 محرم 1251هـ/1835م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 30.

²ببير بورديو، الرمز والسلطة، منشورات دار تويقال الدار البيضاء، ط3، 2007م، ص84.

³من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطرّيس إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة البارون فريدريش فون منتسينغن، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/18 يناير 1903م.

الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

⁴من رسالة أحمد بن محمد بن العربي الطرّيس خليفة النائب السلطاني إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/30 مارس 1906م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

إن تربية وتأديب القبائل الجامحة قد شكل إحدى الركائز التي راهن عليها المخزن في ممارسة شؤون الحكم، وفي التعبير عن سلطته الرمزية من خلال التعريف بقوة الآلة السلطانية، وبقدرتها على اقتحام فضاء المحكومين أو على الأقل إيهامهم بذلك¹. لذلك لا يمكن اختزال وظيفتها في مجرد تحريك مخزني لإجبار القبائل على الطاعة وأداء ما بذمتها من ضرائب، بل إنها تجسّد لحضور مخزني في شكل عاصمة متحركة للسلطان تندفع داخل البوادي بهالة وهيبة مستمدة من حجمها وعددها وعدتها وقت تحركها، ومن شكل تموضعها وهندسة مقامها لحظة حلولها².

وشكلت الحركات أيضاً أبرز المواقب إثارة سواء من حيث حجمها وشكلها، أو امتدادها في الزمان والمكان، أو الأهداف المتوخاة من تظاهراتها، فكان يتم الإعداد لها بعناية كبيرة لتعبر عن سمات التفاخر الممثلة لعظمة المخزن، لذلك روعي في تنظيمها وطريقة سيرها وأساليب تعاملها مع الرعايا جملة من الضوابط التي أضحت تمثل قاعدة عامة ميزت هذا الصنف من التنقلات³.

واتخذ السلاطين من مسألة الإشراف على حل المنازعات بين الرعايا المغاربية أو بينهم وبين الرعايا الهولنديين وسيلة لإظهار سلطتهم في ميدان التحكم التي اختزنت حمولة رمزية تراوحت بين إبانة القدرة على تحقيق الإنصاف المادي في صيغته الأخلاقية، وبين ترسيخ ثقافة سمو المؤسسة السلطانية على الرعية والأطر المخزنية من خلال حرصها على حماية مصالح السكان، وتتبع قضاياهم، ومحاسبة كل من تجرأ على ارتكاب تجاوزات أو تعسفات في حقهم⁴.

ولا أدل على ذلك أكثر من الرسالة التي بعث بها القنصل الهولندي أگوسطُ فُريسينبُ إلى السلطان مولاي عبد الرحمن في 11 أكتوبر 1842م يشتكي له فيها تعرض نائبه بأسفي لاعتداء من طرف شاب بينما كان يتجول في سوق المدينة، وإقدام قائد المدينة على تطويق النائب في أحياء أسفي وإيداعه السجن بعدما حاول الدفاع عن نفسه برد الاعتداء المذكور، وبأنه لم يجد أمامه من سبيل

¹ محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2011، ص 198.

² الطيب بياض، المخزن والضربية والاستعمار ضربية الترتيب 1880-1915م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 154.

³ محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، ص 192.

⁴ محمد جادور، المرجع السابق، ص 185.

لإنصاف نائبه بأسفي سوى مطالبة السلطان مولاي عبد الرحمان بإحقاق الحق في هذه النازلة قائلاً:

«فالإعلام لمقام مولانا أعزّه الله ونصره بأن النائب عن جنسنا في الخدمة القنصلية بأسفي قد كتب إلينا يُعلمنا فيه بأنه كان ذات يوم في السوق وصدف صبياً كبيراً بالغا، واشتغل يسبه الصبي وقال له ما يكره، والخليفة لم يرد يجاوبه أبداً، وبعد ذلك ... ضربه الصبي بحجرٍ على كتفه حتى ضرّه، وبحرارةٍ من الضربة التفت إليه الخليفة وضربه ضربةً واحدة في ظهره، وبعد فوات نصف ذلك من الواقع قد وجّه قائد البلد على خليفتنا، ومن غير سؤاله عن الواقع كيف توقع أمر بتطويفه في زقاق البلد، ثم وجّهه إلى سجنٍ... ولا يتمكن لي تستر عن سيدنا نصره الله أمر واقع مثل هذا الواقع، فخليفتنا من غير شكوتي على سيدنا نصره الله بأمره، ونرجو من فضل مولانا نصره الله يأمر بجعل الحق في ذلك، بحيث لم يتوقع مثله أبداً، وهذا ما نرجو من فضل مولانا، فالله يدوم عزّه وعُلاه أمين»¹، وسرعان ما استجاب السلطان مولاي عبد الرحمن لطلب القنصل الهولندي، وأصدر أوامره بإطلاق سراح النائب المذكور، وتوقيره واحترامه، ومعاملته معاملة حسنة تليق بمقامه الدبلوماسي قائلاً: «فقد وافى حضرتنا العلية بالله كتابك، وعرفنا مضمونه، وما ذكرت على شأن ما كتب لك به نائب جنسك من ثغر أسفي حرسه الله من الخصام الصادر بينه وبين صبي من الثغر المذكور، وما صدر من العامل في جانبه، فما نحن كتبنا له وأمرناه أن يُحسن معاملته وأن يُظهر عليه أثر العناية وجميل الرعاية، ولا يترك من يتعرّض له بمثل ذلك»².

ولتوسيع قاعدة الأبعاد الرمزية، وظف المخزن في إطار علاقته بالدبلوماسيين الأجانب سلطة الكرم والجود التي أبطنت أبعاداً رمزية وسياسية، تجسدت في التعبير عن الأبهة المستوحاة من النسب الشريف من جهة، وتكريس فكرة مؤداها أن السلطان مصدراً لمختلف أشكال العطاء من جهة ثانية، مثلما فعل السلطان مولاي عبد الرحمن حينما أنعم على التاجر الذمي مَيّر بن مقنين

¹ من رسالة القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أغوستُ فُريسينطُ إلى القائد محمد أشعاش، بتاريخ 5 رمضان 1258 هـ/ 11 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 31.

² من رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أغوستُ جُونُ فُريسينطُ، بتاريخ 14 رمضان 1258 هـ/ 20 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 31.

بوسق الثيران من مينائي طنجة وتطوان إلى هولندا مع تخفيضات مغرية في الرسوم الجمركية¹، وكذا عندما منح السلطان نفسه القنصل الدنماركي «عرصة» بمدينة طنجة سنة 1832م² وغيرها من العطايا والمنح الكثيرة التي حاول السلاطين من خلالها إظهار تفردهم الذي يتداخل فيه الديني والسياسي بشكل غامض.

هكذا نستخلص مما سبق، أن البناء النصي للمراسلات المخزنية يعكس خطاب السلطان بكل منعطفاته، لأنه هو أصل الخطاب، الأمر بإنشائه، المستند بقوة القلم أيضاً، وبأن البنية العامة للمراسلات بقيت شبه ثابتة عما كانت عليه سابقاً، كما أن طغيان الحشو على المضمون أدى إلى خروج بعض الرسائل أحياناً عن قواعد المكاتبات الدبلوماسية. وبأن المخزن المغربي في علاقته بهولندا لجأ في كثير من الأحيان إلى توظيف رموزاً مختلفة للتعبير عن أشكال تمطر السلطة المادية، لأن القوة وحدها لا تخول الزعامة الكاملة ما دام يمكنها ممارسة الإكراه وليس الإقناع الذي لا يتم تحقيقه إلا بالسلطة الرمزية، وللتعبير عن القدرة على تحقيق الإنصاف المادي في صيغته الأخلاقية عبر الفصل في المنازعات المستعصية، ولإظهار الجود السلطاني مع الأجانب من خلال تمتيعهم بشتى أصناف الامتيازات التجارية والعقارية.

¹ انظر رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أميمون، بتاريخ 22 صفر عام 1239هـ/1823م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 40.

² انظر ظهير السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام بمنح قنصل الدنمارك عرصةً بطنجة، بتاريخ 13 شعبان 1248هـ/1832م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 30.

المراجع المعتمدة

- ✓ محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2011، ص 198.
- ✓ الطيب بياض، المخزن والضرية والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2011.
- ✓ بيير بورديو، الرمز والسلطة، منشورات دار توبقال الدار البيضاء، ط3، 2007.
- ✓ ظهير السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام بمنح قنصل الدنمارك عَرَصَةً بطنجة، بتاريخ 13 شعبان 1248هـ/1832م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ مرسوم السلطان مولاي عبد العزيز حول إحداث ضريبة الترتيب وكيفية تنظيمها وإجرائها، غير مؤرخ. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندة، بتاريخ 27 صفر عام 1326هـ/1908م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.03، وزارة الشؤون الخارجية 1871-1918.
- ✓ رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى قنصل الدنمارك بطنجة يوهان أرناط كريسترسن، 13 محرم 1251هـ/1835م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 30.
- ✓ رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوستُ جُونُ فُريسينطُ، بتاريخ 14 رمضان 1258هـ/20 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أميمون، بتاريخ 22 صفر عام 1239هـ/1823م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830.
- ✓ رسالة أحمد بن محمد بن العربي الطُّرَّيس خليفة النائب السلطاني إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/30 مارس 1906م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.

- ✓ رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرَّيس إلى الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة البارون فريدريش فون منتسينغن، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/18 يناير 1903م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسطُ فُريسيِنطُ، بتاريخ 12 رمضان 1271هـ/1855م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسطُ فُريسيِنطُ، 17 ذو الحجة 1270هـ/1854م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة من القائد أحمد بن عبد المالك السعيدى إلى نائب دولة البرازيل بالعرائش، 15 ربيع الأول 1316هـ/1898م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.
- ✓ رسالة القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسطُ فُريسيِنطُ إلى القائد محمد أشعاش، بتاريخ 5 رمضان 1258هـ/11 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.

مواد العدد

01	كلمة العدد الصديق الصادقي العماري....
03	الإشعاع الاقتصادي والثقافي بمنطقة واد نون وامتداده الإفريقي الحسين حديدي....
22	قبيلة أولاد بوعشرى في الكتابات الأجنبية خلال القرنين 19 - 20محسان الشاكر....
54	جماليات التلقي من أجل تأويل النص الأدبي ...الصديق الصادقي العماري....
79	سيمانيات المسرحالمختار العسري...
91	البنية والرمز في الخطاب الدبلوماسي المخزني من خلال الأرشيف الهولندي بلاهاي عبد الغني العمراني....